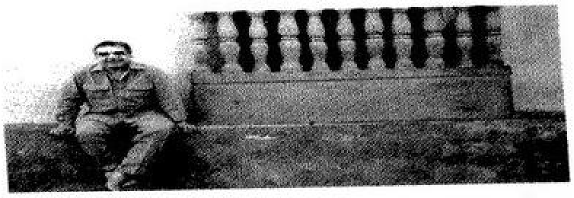


غابرييل غارسيا ماركيز

قصص ضائعة

لست أدري إذا كانت توجد - ولا بد من وجودها، كتب تجمع مثل هذه القصص التي تتكرر في جميع أنحاء العالم، والتي يؤكد رواتها أنهم كانوا شهود عيان على وقائعها. وهذا يعني: إما أن الرواة يكذبون، وهو أمر محتمل، وإما أن تلك القصص تحدث فعلاً بشكل متشابه في أوساط ثقافية متباينة، وأزمنة مختلفة.

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس: ٥٥٢٢٥٤٤ ● ص.ب: ٩٥٠٢٥٢ . عمان ١١١٩٥ الأردن

ابداعات عالمية

نصوص ومقالات

غابرييل غارسيا ماركيز

قصص ضائعة

ترجمها عن الإسبانية

صالح علماني



قصص ضائعة
قصص ضائعة
قصص ضائعة

قصص رائعة

المحتوى

هذه هي *القصة* ، كما رووها لي

لم يكن كارلو دي لوكا - وريث امبراطورية صناعية واسعة ورئيسها - واحداً من اكثر الرجال نفوذاً في ايطاليا وهو في السادسة والثلاثين من عمره وحسب ، بل ربما كان اكثرهم أناقة وكياسة كذلك .فلم يكن للحفلات في روما أو ميلانو أي طعم دون مشاركته . وفضلاً عن كونه محدثاً لامعاً بخمس لغات يتقنها تماماً ، كان يعزف البيانو، والجيتار ، والساكسفون مثل محترف في العزف ، ويغني ويرقص وكان الغناء والرقص مهنته ، وكان طياراً مجرباً ، ورياضياً متعدد الرياضات، وحاوياً مذهلاً ، ومقلداً باهراً للشخصيات المشهورة. وعلى الرغم من المهمات الكثيرة التي كانت تحاصره ، سواء في عمله أو في الحياة الاجتماعية ، فقد كانت حياته الزوجية منسجمة ومستقرة . وكانت زوجته الجميلة والرشيقة تبدو سعيدة . وكان له ابن وحيد ، اسمه بيرو ، عمره ثمان سنوات .

لقد أثارت شخصية ذلك الرجل الاخاذ ، قلقاً غامضاً في قلب سيلفيو بينيالبير ، وهو مهاجر أمريكي لاتيني ، خجول وكفؤ جداً ، كان قد توصل خلال سنوات قليلة إلى موقع جيد في إحدى شركات كارلو دي لوكا الصغرى . كان رب العمل في نظر بينيالبير هو نموذج الرجل السعيد ، وقد بدا له ذلك اليقين أمراً لا يطاق ، لأسباب من النوع الأخلاقي ، لم يستطع هو نفسه تفسيرها .

عند الغروب ، وصل بينيالبير إلى شقته في باريولي ، ومعه بيرو الصغير الذي كان يبدو غير متعب لفرط سعادته . كانت زوجته وابنه ينتظرانه لتناول العشاء ، بعد أن امضيا يوم أحد ممتعاً كذلك . فسّر بينيالبير وجود بيرو بابسط طريقة ممكنة : لقد رغب الطفل في أن ينام معهم ، لأن ابويه لن يكونا في روما تلك الليلة ، وقد الح الصغير كثيراً حتى أن كارلو دي لوكا نفسه منحه الإذن قبل أن يسافر إلى نيويورك .

كان عشاء ممتعاً . وقد تفاهم ابن بينيالبير وبيرو المحظوظ على أحسن ما يرام ، وتمكن هذا الأخير ، لأول مرة ، من أن يأكل ما يشاء ويرفض ما لا يرغب فيه ، وأن يخرق جميع قواعد اللياقة دون أن يؤنبه أحد على ذلك . وقد هدّأ بينيالبير من روع زوجته : الامر كله مجرد مزاح . فهو يرى انه من غير الأخلاقي أن يكون كارلو دي لوكا سعيداً كل تلك السعادة ، ويريد أن يقدم له ولو يوم أحد واحداً من الغم على الاقل . ولفتت زوجته انجيلا نظره إلى أن تلك المداعبة الثقيلة قد تكلفة الطرد من عمله . كان بينيالبير معتمداً على تواطؤ بيرو في عدم اكتشاف أمره ، لكنه كان مستعداً مع ذلك للعودة إلى بلاده ، حيث بدأت تتبدل الظروف السياسية التي اضطرته إلى الهجرة . وأدركت انجيلا ، التي كانت جدية وملهمة ، انه ليس أمامها من طريق آخر ، بعد أن وصلت الامور إلى ذلك المستوى ، سوى مشاركة زوجها المصير . ثم طمانتها نشرة أخبار التلفزيون حين لم ترد كلمة واحدة عن القضية . وانتهت إلى الاتفاق مع زوجها على أن يعيد الطفل إلى بيته سالماً ومعافى ، في صباح اليوم التالي الباكر .

لم ينم كارلو دي لوكا لحظة واحدة . كان الجدال مع شركائه طويلاً ومضنياً ، ولكنهم كانوا على وشك الوصول إلى اتفاق عند الفجر . بدأت حقائب المال القادم من مصادر متنوعة تتجمع في المكتب ، وكان يجري إعداد الخمسين

مليوناً لتسليمها . وفي الساعة السابعة صباحاً ، حين كانوا بانتظار المكالمة الأخيرة لإقرار تفاصيل تسليم الفدية ، فوجىء الجميع بـ خبر الذي يقول إن بيرو قد رجع .

فعلاً ، لقد حمله بينيالبير على دراجته النارية حتى الحديقة المجاورة ، وودعه هناك بعد أن زوده بتعليمات مفصلة للوصول إلى بيته دون لف ولا دوران . ابتعد الطفل عنه دون حماس ، وكان حزيناً إلى حد ما ، لأن مغامرة حياته الكبرى قد انتهت . لم ينتبه هو ، ولا خاطفه اللطيف إلى أن اثنين من رجال الشرطة الكثيرين الذين كانوا يرصدون المنطقة – أحدهما متنكر بزي بائع حليب والآخر بزي كنّاس عام – قد اكتشفاهما .

خرج كارلو دي لوكا ، المنهوك من التوتر والسهر ، راكضاً لاستقبال ابنه . وفي تلك اللحظة بالذات ، توقفت أمامهما سيارة الشرطة التي كانت تحمل بينيالبير سجيناً . حينئذ أدرك كارلو دي لوكا الحقيقة ، وافرغ على مستخدمه كل شحنته من الغضب المتراكم خلال نحو عشرين ساعة من الجزع . أما الطفل الذي كان ما يزال بين يدي أبيه ، فقد مر بلحظة من التشوش . ولكن ما إن انطلقت سيارة الدورية بانوارها وصفاراتها ، حتى أفلت نفسه من يدي أبيه ، وركض وراء السيارة الشرطية ، باكياً بصوت عالٍ ، ليمنعهم من أن يأخذوا إلى السجن أباه المزيف ، الذي منحه يوم الأحد السعيد الوحيد .

قصص ضائعة

شاب من تشيكوسلوفاكيا ، غادر موطنه مدفوعاً بالرغبة في جمع ثروة . وبعد مرور خمس وعشرين سنة ، وكان قد تزوج وأثرى ، رجع إلى مسقط رأسه، حيث كانت أمه واخته تملكان فندقاً .

ولمجرد مداعبتهما ، ترك المسافر زوجته في فندق آخر في البلدة ، واستأجر لنفسه غرفة في فندق الام والاخت ، اللتين لم تتعرفا عليه بعد سنوات الفراق الطويلة . كان ينوي ، كما يبدو ، أن يفصح عن شخصيته في اليوم التالي ، اثناء تناول الفطور . ولكن في منتصف الليل ، وفيما هو نائم ، قامت الام والأخت بقتله لسرقة أمواله .

هذه هي حبكة (سوء التفاهم) ، العمل المسرحي المعروف الذي كتبه ألبير كامي ، واستوحاه من واحدة من تلك القصص التي لا يعرف أصلها ، والتي تتناقلها التقاليد الشفوية – مع بعض التعديلات الطفيفة – ، ليس في المكان وحسب ، بل وفي الزمان أيضاً . في الطبعة الصادرة عن سلسلة بلياد لمسرحية كامي ، يقول كاتب ملاحظاتها وهوامشها روجيه كييو : إن للقصة عدة روايات ، وفي بلدان عديدة . وانها تظهر منذ العصور الوسطى في التقاليد الشفوية أو في الصحافة . ويكتب روجيه كييو قائلاً : « وقد دلني م . بول بينكاو على أغنية قديمة حول – الجندي الذي قتلته أمه – . كما ان القصة ذاتها ترد لدى لويس

كلود دي سانت مارتين على أنها قصة بوليسية ، وقعت في «تورس» في شهر حزيران ١٧٩٦ . واخيراً ، فإن الكاتب الأمريكي اللاتيني دومنغو سارمينتو ، يؤكد : ان الاسطورة نفسها معروفة جيداً في تشيلي ، وانها تتطابق تماماً مع موضوع المأساة التي تحمل اسم (الرابع والعشرين من شباط) لثاكارياس ويرنير» .

لست أدري إذا كانت توجد – ولا بد من وجودها – كتب تجمع مثل هذه القصص التي تتكرر في جميع أنحاء العالم ، والتي يؤكد رواتها انهم كانوا شهود عيان على وقائعها . وهذا يعني : إما ان الرواة يكذبون ، وهو أمر محتمل، وإما ان تلك القصص تحدث فعلاً بشكل متشابه في أوساط ثقافية متباينة وأزمنة مختلفة . واحدة من تلك القصص ، وقد تحدثت عنها في هذه الزاوية من قبل ، هي قصة السيارة التي تلتقط من الطريق امرأة متوحدة ، ما تلبث أن تختفي من مقعدها اثناء الرحلة . ولكن هناك تفصيل ثابت في القصة : ففي جميع رواياتها التي تروى في مختلف البلدان ، يكون قد وقع حادث مروع في المكان الذي تركب منه المرأة ، وتكون قد قضت نحبها في الحادث امرأة ترتدي ملابس مماثلة . وفي المرة الاخيرة التي كتبت فيها عن هذه القضية ، تلقيت رسائل كثيرة ، أخبرني مرسلوها ان الواقعة ذاتها قد جرت في أماكن متعددة ، ووصل الامر بهم في بعض الاحيان إلى ذكر أسماء أبطالها . وقد أرسل لي أحدهم صوراً لعدة صفحات من كتاب لصديقي الكاتب الكتلاني فاثكيث مونتالبان ، وهو منشور قبل وقت طويل من نشر الصحف الفرنسية للواقعة كما جرت في الصيف الماضي .

إنني أعود إلى الموضوع اليوم ، لان صديقاً من مكسيكو ، لا يمكن الشك بكلمته ، روى لي : انه قد عاش القصة ذاتها في أحد أيام الأسبوع

الماضي ، وفي عز النهار ، أثناء عودته من تاكسكو إلى مدينة مكسيكو ، على طريق اوتوستراد تسير عليه السيارات بكثرة تجعل المرء يتساءل أحياناً لماذا لم يضعوا شارات ضوئية عند بعض تقاطعاته .

لكن أغرب تلك القصص ، وأكثرها رعباً وتعقيداً ، هي تلك التي يُعتقد انها قد وقعت في مكان ما من أفغانستان ، منذ سنوات طويلة . إنها قصة رجل التقى مصادفة ، في أحد الأسواق ، امرأة بدت له أجمل إمرأة في العالم . وتمشيا مع العادات المحلية ، لم يحاول الرجل إغواء الجميلة بالأساليب الغربية السليمة ، وإنما اتفق مع أبويها ، ولكنها فرضت على زوجها شرطاً ، لا يقتضي نومهما في غرفتين منفصلتين وحسب ، وانما الإمتناع كذلك عن أية علاقة جنسية ، اللهم إلا في بعض المناسبات القليلة التي تكون مستعدة فيها لذلك . وقد خضع الزوج لتلك القواعد المخالفة للطبيعة ، إلى ان اكتشف في إحدى الليالي أن زوجته تهرب من البيت فيما هو نائم ، وتذهب لزيارة عشيق سري ، في كوخ غير بعيد عن بيتها ، وكانت على علاقة به قبل زواجها . حينئذ لحق بها الزوج مسلحاً بسيفه ، وانتظر إلى أن خرجت من البيت الغريب لترجع الى بيتها ، فدخل وقطع رأس العشيق بضربة من سيفه . بعد ذلك مسح السيف ونظفه بحذر شديد ، حتى ان الزوجة حين فحصته – وهي تحاول معرفة مرتكب الجريمة – لم تجد أي اثر يتيح لها إتهام الزوج . واستطاع هذا الاخير من جهته ، أن يتوج أخيراً طموحه بالنوم مع أجمل امرأة في العالم ، التي انتهت بدورها الى الشعور بالسعادة معه ، ومنحته ثلاثة أبناء . وبعد سنوات طويلة ، وأثناء مرورهما مصادفة في أحد الايام أمام كوخ العشيق الميت ، لم تستطع المرأة أن تواري اضطرابها ، وطلبت من زوجها أن يبتعدا عن ذلك المكان بأسرع ما يمكن . حينئذ أقدم الزوج على التهور الذي كشف أمره حين قال لها « لكنك

ما كنت تتعجلين كثيراً في تلك الأزمنة » . لم تبد المرأة أية علامة تكشف عما تكنه ، ولكن حين رجع الزوج إلى بيته في تلك الليلة ، وجد ابناءه الثلاثة مقطوعي الرؤوس ، بالسيف ذاته الذي قطع به رأس خصمه ، ولم يعد يعرف منذ ذلك الحين اي شيء عن أجمل امرأة في العالم .

تتكرر هذه القصة ، باشكال متنوعة ، في كل مكان . لكن آخر من رواها هو بروفسور جامعي ، اكد انه كان في افغانستان ، وانه تعرف على بطلها . واضاف اليها امراً حاسماً : كانت في ظهر الرجل ندبة ، سببتها زوجته ذاتها بسيفه المتعطش إلى الدماء ، حين حاولت أن تقطع رأسه هو أيضاً . وهذا الكلام يجعل من القصة قصة معاصرة بعد أن كان يعتقد انها قديمة جداً ، وانها ترجع الى الزمن الذي سبقت فيه السيوف الأسلحة النارية في الجرائم العاطفية ، وحين لم يكن ممكنا تصور قصة ذات نهاية سعيدة ، من هذه القصص التي تعتبر اليوم كارثة أدبية .

لقد قرأت (الف ليلة وليلة) حين بدأت أعي الدنيا ، وربما كان ذلك واحداً من الاسباب التي تجعلني اعتبره كتابي الذي لا ينسى . ولكنني كلما سمعت أحداً يروي قصة العشيق مقطوع الرأس ، تنبعث فيّ انفعالات هاجعة من قراءات طفولتي الضبابية ، لكنني أعجز عن العثور على القصة في الطبعات المختلفة التي املكها من حكايات شهرزاد الخيالية . وأصطدم دائماً مع ذلك بقصة مماثلة ومروعة : قصة المرأة التي لا تأكل في بيتها إلا حبات من الأرز ، تلتقطها من الطبق حبة حبة بواسطة دبوس ، إلى أن إكتشف زوجها أنها لا تأكل لكي تهرب من البيت ليلاً ، وتذهب لتأكل جثثاً في المقبرة . واصطدم كذلك بقصة أخرى هي من أجمل ما قرأت في حياتي : قصة الصياد الذي يطلب من جار له رصاصاً لشبكته ، ويعده بأن يعطيه مقابل ذلك اول سمكة يصطادها في

ذلك اليوم . ينجز وعده ، وحين تشق زوجة الجار السمكة لتنظفها ، تجد في بطنها ماسة بحجم حبة البندق . أجد هاتين القصتين وقصصاً كثيرة أخرى مذهلة ، ولكنني لا أتوصل الى أصل القصة الاخرى ، قصة أجمل إمرأة في العالم ، تلك التي جزت رؤوس اولادها الثلاثة ، لأن زوجها قطع رأس عشيقها.

فهل هناك قارىء رحيم يساعدني في العثور عليه ؟

أشباح الدروب

كان شابان وشابتان يسافرون معاً في سيارة رينو /٥/، وقد توقفوا في الطريق لالتقاط امرأة ترتدي ملابس بيضاء ، كانت قد استوقفتهم عند تقاطع طرق ، بعيد منتصف الليل . كان الجو صافياً ، وكان الشبان الاربعة - كما تم التاكد حتى الثمالة فيما بعد - يتمتعون بكامل قواهم العقلية . رافقتهم السيدة في الرحلة لعدة كيلومترات وهي تجلس صامتة في وسط المقعد الخلفي ، إلى ما قبل جسر « كاتري كامو » بقليل ، حينئذ أشارت إلى الأمام بإصبع مرتعشة وصرخت « حذار ، هذا منعطف خطر » واختفت في الحال .

حدث ذلك على الطريق العام ، بين باريس ومونبليه . ومفوض شرطة هذه المدينة الأخيرة ، الذي أيقظه الشبان الأربعة ليرووا له الحادث ، وصل به الأمر إلى القبول بان ما قالوه ليس مزاحاً ولا هذياناً ، لكنه حفظ القضية ، لانه لم يعرف ما عليه أن يفعل بها . وقد تناولت الحادث في الايام التالية جميع صحف فرنسا ، وهرع عدد من علماء النفس ، وأطباء العيون ، ومحررو الريبورتاجات الماورائية الى مكان الرؤيا ليدرسوا ظروف وقوعها ، وانهكوا باستجواباتهم العقلانية الشبان الاربعة الذين اختارتهم السيدة ذات الملابس البيضاء . لكن النسيان طوى الامر برمته بعد عدة أيام ، ولاذ العلماء والصحافة بتحليل واقع اكثر بساطة : ووافق اكثرهم تفهماً على أن الرؤيا قد تكون صحيحة ، ولكن حتى هؤلاء فضلوا نسيانها امام استحالة تفسيرها .

اما أنا – وأنا مادي راسخ – فلا يراودني أي شك في ان ذلك الحادث ، ما هو الا فصل آخر ، ومن أجمل الفصول ، في تاريخ تجسيد الشعر الغني . والعيب الوحيد الذي وجدته في القصة هو حدوثها ليلاً ، بل وعند حدّ منتصف الليل ، مثلما يحدث في أسوأ أفلام الرعب .وباستثناء ذلك ، لا وجود لعنصر واحد فيها لا يتفق مع ميتافيزيقية الدروب ، تلك التي شعرنا بها جميعنا قريبة منا اثناء إحدى رحلاتنا ، لكننا نرفض الاستسلام امام حقيقتها التي تبعث القشعريرة في الجسم . لقد انتهينا الى القبول باعجوبة السفن الشبحية التي تطوف جميع البحار باحثة عن هويتها الضائعة ، لكننا ما زلنا نرفض منح هذا الحق لأرواح كثيرة بائسة ومحزونة ، بقيت منثورة دون معنى على جوانب الدروب . ففي فرنسا وحدها ، سُجل منذ بضع سنوات موت مئتي شخص أسبوعياً في أشد شهور الصيف جنوناً ، وهكذا لا يمكن لنا ان نفاجأ بوقوع حدث مفهوم تماماً ، مثل حادث السيدة ذات الملابس البيضاء ، الذي سيتكرر دون ريب حتى نهاية العصور . والعقلانيون الذين بلا قلب هم وحدهم من سيعجزون عن فهم ظروف تلك الاحداث .

لطالما فكرت ، أثناء رحلاتي الطويلة على دروب العالم الكثيرة ، أننا معظم بني البشر في هذه الأزمنة ، لسنا إلا ناجين من الموت عند احد المنعطفات . وكل منعطف منها ما هو إلا تحدٍ خاضع للحظ . ويكفي أن تصيب السيارة التي امامنا اية محنة بعد المنعطف ، حتى تضيع منا وإلى الأبد فرصة رواية ما حدث . لقد أصدر الانكليز ، في السنوات الأولى لاختراع السيارة ، قانوناً خاصاً – The Locomotive Act – يفرض بموجبه على كل سائق أن يرسل أمامه شخصاً راجلاً يحمل راية حمراء ويرن جرساً ، لكي يتاح للعابرين الوقت الكافي للابتعاد من امام السيارة . وفي أحيان كثيرة ، وبينما

انا أضغط على دواسة البنزين لأغرق في اسرار احد المنعطفات الغامضة ، كنت اتاسف في أعماق روحي لأن مرسوم الانكليز الحكيم ذاك قد الغي ، وقد احسست بذلك على نحو خاص في إحدى المرات ، منذ خمسة عشر عاماً ، اثناء رحلة كنت اقوم بها من برشلونة الى بيربينيان ومعي مرثيدس والطفلان ، وكنت اسير بسرعة مئة كيلو متر في الساعة حين راودني فجاة إلهام لا تفسير له ، يدعوني الى تخفيف السرعة قبل ان اصل المنعطف . ومثلما يحدث دوماً في مثل هذه الحالات ، فقد تجاوزتنا السيارات التي كانت وراءنا . لا يمكننا نسيان تلك السيارات أبداً : شاحنة صغيرة بيضاء ، وفوكس فاجن حمراء ، وفيات زرقاء . بل إنني ما زلت اذكر الشعر المجعد الأشقر للهولندية الأنيقة التي كانت تقود الشاحنة الصغيرة . وبعد ان تجاوزتنا تلك السيارات الثلاث في نظام كامل ، اختفت عن أعيننا في المنعطف ، لكننا ما لبثنا أن التقينا بها بعد لحظة، وقد اختلطت ببعضها بعضاً ، في ركام من الخردة المدخنة ، مصطدمة بشاحنة ضخمة كانت قادمة من الاتجاه المعاكس . الناجي الوحيد في ذلك الحادث كان طفلاً عمره ستة شهور ، وهو ابن الزوجين الهولنديين .

لقد عدت للمرور من ذلك المكان مرات كثيرة ، وفي كل مرة كنت أعود للتفكير في تلك المرأة الجميلة ، التي تحولت الى كومة من اللحم الوردي في عرض الطريق . لقد كانت عارية تماماً بفعل الصدمة ، وقد منح الموت رأسها الجميل الذي يشبه رأس امبراطور روماني ، مسحة من وقار . وليس مستغرباً ان يلتقي بها أحد المسافرين يوماً في مكان محنتها ، حية وتامة ، تشير له أن يتوقف مثلما أشارت سيدة مونبليه ذات الثياب البيضاء ، ليخرجها أحد من سباتها للحظة ، ويمنحها الفرصة لتحذره بالصرخة التي لم يطلقها أحد لتحذيرها : « حذار، هذا المنعطف خطير » .

ليست حكايات الدروب السرية اكثر شعبية من حكايات البحر ، لانه ليس هناك من هم اكثر شروداً من السائقين الهواة . اما المحترفون – الذين هم اشبه بالبغالين القدماء – فهم مصدر لا ينضب للحكايات العجيبة . ففي استراحات الطرق العامة ، مثلما كان الامر في محلات استبدال احذية البهائم القديمة ، لا ينقطع السائقون المجربون ، الذين يبدون انهم لا يؤمنون بشيء ، عن رواية الاحداث الماورائية لمهنتهم . وخصوصاً ما يحدث منها في عز النهار ، بل وفي الدروب المطروقة اكثر من سواها . في صيف عام ١٩٧٤ ، وفيما انا مسافر مع الشاعر الفارو موتيس وزوجته على الطريق ذاته الذي ظهرت عليه السيدة ذات الملابس البيضاء ، رأينا سيارة صغيرة تخرج من رتل السيارات الطويل المتوقف بسبب الازدحام ، وتتقدم نحونا من الاتجاه المعاكس بسرعة جنونية . تمكنت من تفاديها بصعوبة شديدة ، لكن سيارتنا طارت في الفضاء ، وهوت في قاع الحفرة التي إلى جانب الطريق . وقد تمكن عدة شهود من تثبيت صورة السيارة الهاربة في مخيلتهم : كانت سيارة بيضاء اللون ، من طراز سكودا ، وقد سجل رقم لوحتها ثلاثة شهود مختلفين . قدمنا الشكوى المناسبة في مفوضية شرطة الس أن بروفانس ، وبعد بضعة شهور ثبت للشرطة الفرنسية دون مجال للشك ، ان سيارة السكودا البيضاء ، ذات اللوحة المذكورة، موجودة بالفعل . ولكن ثبت لهم كذلك انها كانت ساعة وقوع الحادث في اقصى فرنسا من الجهة الاخرى ، محفوظة في مرأب ، بينما كان صاحبها وسائقها الوحيد يحتضر في مستشفى قريب .

من هذه التجربة ، وغيرها كثير ، تعلمت ان احترم الطرق العامة احتراماً اقرب الى الخشوع . ومع ذلك ، فإن اكثر الحوادث التي اذكرها إثارة للقلق هو ما حدث لي منذ سنوات طويلة ، في مركز مدينة مكسيكو . كنت قد انتظرت

سيارة أجرة لمدة نصف ساعة تقريباً ، عند الساعة الثانية بعد الظهر ، وكنت على وشك التخلي عن الانتظار عندما رأيت سيارة تقترب ، وقد بدت لي للوهلة الاولى فارغة الا من سائقها ، والعلامة التي تشير الى ذلك كانت مرفوعة أيضاً . ولكنها ما ان اقتربت بعض الشيء حتى رأيت ، دون اي ريب ، ان ثمة شخصاً يجلس الى جوار السائق . وعندما توقفت السيارة ، دون ان اشير لها ، انتبهت الى خطاي : لم يكن يوجد اي راكب الى جانب السائق . واثناء الطريق ، رويت له عن ذلك الخداع البصري ، فاصغى إلي بكل تلقائية ، ثم قال لي : « هذا يحدث على الدوام . في بعض الأحيان اقضي النهار كله في اللف والدوران ، دون ان يوقفني أحد ، لأن الجميع تقريباً يرون راكباً وهمياً في المقعد الذي إلى جانبي » . وحين رويت هذه القصة لدون لويس بونويل ، بدت له طبيعية جداً مثلما بدت للسائق ، وقال لي أنها بداية موفقة لفيلم سينمائي » .

توقف غراهام غرين في هافانا لمدة عشرين ساعة ، فقدم مراسلو الصحافة الاجنبية جميع أنواع التأويلات للحدث . وكان لا بد من ذلك : فقد وصل على متن طائرة خاصة ، قدمتها له الحكومة النيكاراغوية ، وكان يرافقه خوسيه دي خيسوس مارتينث ، وهو شاعر وأستاذ رياضيات بنمي ، كان واحداً من أقرب المقربين الى الجنرال عمر توريخوس . وقد استقبلهما في المطار موظفون من المراسم ، وجرى ذلك وسط تكتم شديد ، بحيث لم يعلم اي صحفي بأمر الزيارة الا بعد ان انتهت . وقد نقل كلاهما الى بيت مخصص لكبار الضيوف ، وخصوصاً لرؤساء البلدان الصديقة : ووضعت تحت تصرفهما سيارة مرسيدس بنز سوداء مهيبة ، من تلك التي استخدمت في الاجتماع السادس لقمة بلدان عدم الانحياز ، قبل تسع سنوات . والحقيقة انهما لم يستخدما السيارة ، لانهما لم يخرجا من البيت الذي زارهما فيه بعض الاصدقاء الكوبيين القدماء ممن علموا بخبر الزيارة ، لان الكاتب نفسه اخبرهم بذلك . أما الرسام رينيه بورتوكاريرو ، الذي تربطه بغراهام غرين صداقة ترجع الى الزمن الذي جاء فيه الكاتب الى هافانا لدراسة أجواء روايته (رجلنا في هافانا)، فقد تلقى الخبر متاخراً ، وحين جاء لزيارة الكاتب ، كان هذا قد غادر عائداً من حيث اتى . لم يكد يأكل سوى مرة واحدة خلال تلك الساعات

العشرين، ملتقطاً لقيمة من كل طبق ، مثل عصفور مبلل ، لكنه تناول وهو على المائدة زجاجة كاملة من نبيذ اسباني احمر جيد ، واستهلك خلال اقامته الخاطفة في البيت سبع زجاجات من الويسكي .

وعندما مضى ، تركنا مخلفاً في ذهننا انطباعاً غريباً بانه هو نفسه لا يعرف سبب مجيئه ، مثلما قد يحدث فقط لأحد شخصيات رواياته المعذبة من تردد الرب .

ذهبت اليه في بيته بعد ساعتين من وصوله ، لأنه اتصل بي فور علمه باني موجود في المدينة ، وقد سعدت بذلك سعادة كبيرة ، ليس للتقدير القديم والكبير الذي اكنه له ككاتب ، وكإنسان وحسب ، وانما لأن سنوات طويلة قد انقضت منذ التقينا آخر مرة . كان ذلك اللقاء الأخير - كما يتذكره هو نفسه - حين سافرنا معاً الى واشنطن ، ضمن الوفد البنمي للتوقيع على اتفاقيات القنال . وقد ذهبت بعض الصحف يومها الى القول ان دعوتنا كانت مناورة من توريخوس لتزيين وفده بإسمي كاتبين مشهورين لا علاقة لهما بتلك المهمة .

الحقيقة انه كانت لنا نحن الاثنين علاقة بمفاوضات الاتفاقية اكثر مما تظنه الصحافة بكثير . ولكن ليس لهذا السبب ولا ذاك دعانا الجنرال توريخوس لمرافقته الى واشنطن ، وإنما لأنه لم يستطع مقاومة إغراء الاقدام على السخرية سخرية حميمة من صديقه الرئيس جيمي كارتر . القضية وما فيها هي ان غراهام غرين ، وأنا كذلك - مثلنا مثل كتّاب وفنانين آخرين كثيرين في العالم - ممنوعان من دخول الولايات المتحدة منذ سنوات طويلة لأسباب لم يستطع حتى الرؤساء انفسهم ان يجدوا لها تفسيراً على الاطلاق . كان الجنرال توريخوس قد وعد بحل هذه المشكلة ، فطرح القضية على عدد كبير من كبار الموظفين الامريكيين الذين كانوا يزورونه في ذلك الوقت ، ثم نقلها في آخر الأمر الى

الرئيس كارتر بالذات ، الذي ابدى استغرابه ووعد بحل المسألة باقصى سرعة . لكن فترة رئاسته انتهت دون ان يتمكن من تقديم اي رد . وحين كان توريخوس يشكل الوفد للذهاب الى واشنطن ، خطرت له فكرة إدخالنا - انا وغراهام غرين - الى الولايات المتحدة تهريباً . كان الامر هاجساً بالنسبة له : فقبل ذلك بزمن قصير ، اقترح على غراهام غرين ان يتنكر بزي كولونيل من الحرس الوطني البنمي ، ويذهب الى واشنطن في مهمة خاصة لدى الرئيس كارتر ، وذلك لمداعبة هذا الأخير بإحدى مداعباته المعتادة . لكن غراهام غرين ، الاكثر رصانة مما يبدو عليه في بعض كتبه ، لم يشأ إعارة جسده المجيد لحادث ، لو انه وقع لكان دون شك واحداً من أطرف الأحداث في مذكراته . ومع ذلك ، حين عرض علينا الجنرال توريخوس حضور مراسم توقيع الاتفاقيات بهويتنا الصريحة ، ولكن بجوازات سفر بنمية رسمية وكاعضاء في وفد هذا البلد ، وافقنا كلانا على الامر بشيء من الفرح الطفولي . وهكذا وصلنا معاً الى قاعدة اندروس العسكرية . كنا نرتدي سراويل رعاة البقر ، والقمصان الخفيفة وسط وفد كاريبي يرتدي أعضاؤه الملابس السوداء ويخيم عليهم الذهول من فرقعة قذائف المدفعية الترحيبية الاحدى والعشرين ، ومن الموسيقى الحربية للنشيد الوطني الامريكي ، والتي بدت وكانها جزء من الدعابة . وقد همس غراهام غرين في اذني ونحن نهبط سلم الطائرة ، وكان مدركاً للشحنة الادبية التي تحملها تلك اللحظة : « رباه ، ياللأشياء التي تحدث للولايات المتحدة » . ولم يستطع كارتر نفسه الا أن يضحك مبدياً اسنانه البراقة الشبيهة باسنان المعلنين في التلفزيون، حين حدثه الجنرال توريخوس عن لعبته الماكرة .

بعد كل تلك السنوات عدت للقاء غراهام غرين المتجدد الشباب ، والذي ما يزال وضوحه الذهني هو اكثر صفاته مفاجاة وثباتا ، وتحدثنا كالعادة ،

قليلا من الحديث في كل امر ، لكن اكثر ما لفت انتباهي هو النبرة الساخرة التي كان يشير بها الى المحاكمات الاربع التي عليه مواجهتها في محاكم فرنسية مختلفة ، وذلك بسبب الكتيب الاتهامي الذي نشره ضد مافيا مدينة نيس. ان من يعرفون العالم السفلي للشاطىء الأزرق الفرنسي ، يدركون ان ما كشف عنه غرين لا يعلن شيئاً جديدا ، لكننا نحن اصدقاءالكاتب ، كنا قلقين على حياته . اما هو ، فلم يتاثر ، بل واصل حملته التشهيرية ، وقال : « اذا كنت ساموت بسرطان البروستات ، فإنني أفضل الموت برصاصة أتلقاها في راسي» . وقد قلت ذلك في ذلك الحين ، ولست اذكر اين ، ان غراهام غرين يلعب بحملته تلك لعبة الروليت الادبي ، مثلما لعب في شبابه بمسدس من طراز سميث، عيار ٢٢ ، كما روى في مذكراته . وقد تذكر هو تصريحي هذا خلال الزيارة ، واتخذ منه نقطة انطلاق ليروي لنا تفاصيل محاكماته الاربع .

وفي حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، جاء فيدل كاسترو لزيارته . لقد تعارفا منذ بداية الثورة ، منذ بدايتها المبكرة ، حين حضر غراهام غرين تصوير فيلم (رجلنا في هافانا) ، وقد التقيا بعد ذلك عدة مرات ، خلال رحلات غراهام غرين المتتالية ، ولكنهما لم يلتقيا على ما يبدو في الرحلتين الاخيرتين ، لان غراهام غرين قال حين تصافحا : « لم نلتق منذ نحو ست عشرة سنة » . بدا لي انهما هائبان بعض الشيء ، ولم يكن من السهل عليها بدء الحديث ، لذلك سالت غراهام غرين عن حقيقة حادثة الروليت الروسي التي يرويها في مذكراته . شعّت عيناه الزرقاوان - وهما اكثر العيون الزرق التي اعرفها صفاءً - وقال : « حدث ذلك وأنا في التاسعة عشرة من عمري ، حين احببت مُدرّسة أختي » . وروى أنه قد لعب فعلاً في ذلك الحين لعبة الروليت الروسي بمسدس قديم لأخيه الأكبر ، وفعل ذلك في اربع مناسبات مختلفة .

كان يفصل بين المرتين الاوليين مدة اسبوع تقريباً ، أما المرتان الاخريان فكانتا متتاليتين لا يفصل بينهما الا دقائق معدودة ، فساله فيدل كاسترو الذي لا يستطيع المرور مروراً عابراً على أمر كهذا دون أن يستنزفه حتى أدق تفاصيله ، ساله : كم طلقة كانت تتسع طاحونة المسدس . فاجابه غراهام غرين : « ست طلقات » . حينئذ اغمض فيدل كاسترو عينيه وراح يهمس ارقاماً مضروبة ببعضها بعضاً ، ثم نظر اخيراً الى الكاتب وقال له : « استناداً الى حساب الاحتمالات ، يجب ان تكون ميتاً » . ابتسم غراهام غرين بالهدوء الذي يبتسم به جميع الكتّاب حين يشعرون انهم يعيشون حدثاً من أحداث كتبهم ، وقال : « لحسن الحظ انني كنت كسولا في الرياضيات دوماً » .

وربما لان الحديث كان يدور حول الموت ، سرعان ما انتبه فيدل كاسترو الى بنية الكاتب المتينة وجسمه السليم فساله اية تمارين يمارس ، وكان سؤالاً لا يمكن ان يفوت فيدل كاسترو الذي يعتبر التربية البدنية احد الامور الاساسية في الحياة ، فهو يمارس التمارين الرياضية لعدة ساعات كل يوم ، وبالنسب الكبيرة ذاتها التي يمارس بها جميع مهامه ، وهو ينصح جميع اصدقائه باتباع نظام تمارين مماثلة . انه يتمتع بصحة بدنية استثنائية بالنسبة لرجل في مثل سنه ، وهو يعزو اليها حسن سلامته الذهنية . ولهذا فوجيء كثيراً عندما رد عليه غراهام غرين قائلاً إنه لم يمارس أية تمارين في حياته على الاطلاق ، وانه رغم ذلك يشعر بصفاء ذهني تام ولا يعاني اية اضطرابات صحية وهو في التاسعة والسبعين من العمر ، وكشف كذلك عن انه لا يلتزم باي نوع من الحمية الغذائية الخاصة ، وانه ينام من سبع الى ثمان ساعات يومياً ، وهو امر مفاجيء بالنسبة لعجوز ذي عادات ثابتة ، وقال إنه قد يشرب في بعض الاحيان زجاجة كاملة من الويسكي في اليوم ، وليتراً من النبيذ مع كل وجبة

طعام ، دون ان يعاني مطلقاً من عبودية الإدمان على الكحول .

ولبرهة ، بدا على فيدل كاسترو انه اخذ يرتاب بفعالية نظامه الصحي ، لكنه سرعان ما ادرك ان غراهام غرين هو استثناء عجيب ... استثناء وحسب . وعندما ودعنا بعضنا بعضاً ، كان قد بدأ يؤرقني اليقين بان ذلك اللقاء

سيذكر عاجلاً او آجلاً ، في كتاب مذكرات واحد منا ، او ربما في مذكراتنا نحن الثلاثة .

الولايات المتحدة الامريكية
بابها مغلقاً خير منه موارباً

منذ نحو ثلاث وعشرين سنة ، ذهبت برفقة مرثيدس وابنينا الى مدينة نويفو لارويدو الحدودية ، حيث يوجد جسر معدني تستند احدى ركيزتيه على الاراضي المكسيكية ، بينما تستند الركيزة الاخرى على أرض الولايات المتحدة . وقد اجتاز الثلاثة الجسر الى الجانب الآخر للحصول على تاشيرة عودة الى المكسيك ، لأن صلاحية تاشيرات إقامتهم كانت منتهية ، وكانت تاشيرة اقامتي منتهية الصلاحية كذلك ، لكنني لم استطع مرافقتهم الى الجانب الآخر ، لان الولايات المتحدة رفضت ان تمنحني حتى مجرد تصريح لمدة ثلاث ساعات أجتاز خلالها الجسر . كان انتقال الناس من جانب الى آخر متواصلاً وكثيفاً ، كما هو الحال في جميع حدود العالم تقريباً . فهناك كثيرون ممن يعيشون في جانب ويعملون في الجانب الاخر ، وهؤلاء معروفون لموظفي الجانبين ، لدرجة انهم لا يطلبون منهم ابراز وثائق اثبات الشخصية . لكن مراكز الهجرة والجمارك في كلا الجانبين كانت تبدي التشدد تجاه المجهولين ، وخصوصاً من هم غير مكسيكيين ، لذلك لم افكر حتى بمجرد محاولة اقناع احد هناك بضرورة مغادرتي وعودتي ، بل جلست على مقعد خشبي مقابل الجانب المكسيكي من

الجسر ، وتاهبت لقراءة رزمة من المجلات باللغتين ، ريثما ترجع اسرتي من تلك الرحلة الغريبة الى الخارج . وقد كان غيابهم لوقت اقصر مما كنا نتصوره جميعنا . ولكن قبل عودتهم ، حدث شيء لا يمكن لي ان أتناساه في مذكراتي . فقد رغبت مرثيدس في ان تحضر لي معها كنزة كهدية ، ولكنها لم تحسم أمر اللون الذي ستختاره ، لذلك وقفت امام باب دكان في العالم الآخر وراحت تعرض علي من هناك نماذج من الكنزات المتوفرة لديهم ، الى ان اشرت لها بيدي الى الكنزة المرغوبة . انني احتفظ بهذا الحادث مسجلاً بوضوح في ذاكرتي ، ليس لانه حادث فريد ومسل فقط ، وانما لأني وجدت فيه نموذجاً جيداً للبعد المضحك الذي قد توصلنا اليه احياناً حماقة الاخرين .

كانت تلك هي المرة الاولى التي ترفض فيها الولايات المتحدة منحي تاشيرة دخول . ومنذ ذلك الحين ، صارت كل زيارة اقوم بها الى تلك البلاد - بتصريحات مؤقتة او مشروطة - مصدراً لاحداث غريبة . واقول بادىء ذي بدء انني لم اعرف السبب الذي جعلني غير مقبول لدخول الولايات المتحدة . ففي سنة ١٩٥٩ ، حين طلبت في بوغوتا التاشيرة لاول مرة كي اعمل مراسلا لوكالة الانباء الكوبية في نيويورك ، منحوني على الفور بطاقة مقيم . وقد تمتعت بتلك البطاقة لمدة سنة تقريباً ، الى ان تركت العمل في الوكالة وجئت الى المكسيك . وقد اهتدى الى مكان وجودي ، وبلا صعوبة ، موظف من سفارة الولايات المتحدة في المكسيك ، وطلب مني اعادة بطاقات الاقامة الخاصة بجميع افراد أسرتي . لقد فوجئت بالكفاءة التي توصلوا بها الى معرفة عنواني ، تماماً مثلما فوجئت فيما بعد ، بعجزهم عن الوصول الى العنوان ذاته ليعيدوا الي الدولارات المتبقية لي بعد تصفية الضرائب الاخيرة التي اجريتها في نيويورك .

لقد باءت بالفشل جميع الجهود التي بذلتها خلال عشر سنوات

للحصول على سمة الدخول ، او ليفسر لي احد سبب عدم شرعيتي على الاقل . لقد ظن احد اصدقائي يوما انه توصل الى حلّ رموز الشيفرة السرية للسفارة التي كان يعمل فيها ، وقال لي ان سبب منعي من دخول الولايات المتحدة هو : اعمال ارهابية في الكاميرون . لم يفاجئني ذلك لاني معتاد على هذا النوع من الهراء ، رغم اخذي بعين الإعتبار اني عدو معلن للارهاب ، واني لم اذهب مطلقاً في حياتي الى الكاميرون . ومع ذلك ، فإن السبب الرسمي الذي كرره على مسامعي مرات ومرات ، عدد كبير من القناصل خلال سنوات عديدة ، هو السبب ذاته ، كما نسبت اليّ مسؤوليات مختلفة بإنتمائي حالياً ، او فيما مضى، الى حزب شيوعي او منظمة موالية للشيوعية . ولو كان هذا صحيحاً ، لما كان لدي ما اندم عليه ، ولكن القضية انني لست كذلك . فانا لم انتم مطلقاً الى اي حزب كان .

المرة الاولى التي وافقوا فيها على منحي تاشيرة دخول لمدة اسبوع ، تقتصر اقامتي خلالها على جزيرة مانهاتن ، كانت في عام ١٩٧١ ، حين منحتني جامعة كولومبيا في نيويورك درجة دكتوراه شرف في الاداب . لكن سعادتي الكبيرة بالعودة الى نيويورك اصطدمت بحادث طريف ومؤسف في الوقت ذاته ، فوزارة الخارجية الامريكية ، ولخشيتها من اقدام سلطات الهجرة في مطار نيويورك على تصرف غير لائق ، يمكن له ان يثير ضجة في الصحافة ، بعثت احد موظفيها من واشنطن ، ليستقبلني في الساعة الثامنة ليلاً في المطار ، ثم يرافقني الى الفندق ، ويرجع بعد ذلك فوراً الى واشنطن ، في أول طائرة ، ليكون في مكتبه في اليوم التالي . الشيء الوحيد الذي لم يكن في الحسبان ، هو ان طائرتي لم تكن قادمة من فرانكفورت ، وإنما من بارانكيلا (كولومبيا) ، وانها لن تصل في الساعة الثامنة ليلاً ، وانما في الرابعة فجراً .

وجدت الرجل المسكين منهوكاً من الجوع والسهر ، بعد ان قرأ ثلاث مرات ، اثناء انتظاره ، ترجمة انكليزية لروايتي :(ليس لدى الكولونيل من يكاتبه) وكان قد سعى للحصول عليها ليعرف على الاقل ، من هو هذا الشخص الذي سيستقبله في المطار ، وما هي كتاباته . عند الفجر ، وبعد ان اوصلني الى الفندق ، اردت ان اكتب له اهداء على الكتاب ، فاعترف لي بخجل ان الكتاب مستعار من مكتبة متجوله ، وانه لا يمكن كتابة اي شيء على صفحاته، وانطلق خارجاً في محاولة للحاق بطائرة تغادر في الفجر ، وتمكنه من الوصول الى مكتبه في الوقت المناسب ، وتركني اعاني مرارة افسادي ليلة كاملة لموظف عمومي مسكين ، سيء الأجر ولا يتمتع باي قدر من روح الدعابة ، ولا علاقة له بحماقات البيروقراطيين الذين لا يجرؤون على منحي تاشيرة كاملة ، ولا يجرؤون على حجبها عني كاملة .

من اكثر الاشياء التي أحبها في « الغرينغويين » ، هو احساسهم الواعي بالذنب . فهم يعيشون في شباك هذا الاحساس ، ويمكن ملاحظته ذلك بوضوح في هذه المشكلة التي خلقوها هم انفسهم ، بتاشيراتهم للكتاب والفنانين الامريكيين اللاتينيين . ولديّ أصدقاء لا حصر لهم محظور عليهم دخول الولايات المتحدة . فخوليو كورتازار ، الذي كانت لديه دعوات دائمة من الجامعات والهيئات الثقافية الامريكية الاخرى ، كان يخضع نفسه لكل انواع التقلبات كلما فكر بتلبية دعوة لتلك البلاد . ومع ذلك ، فإن التهمة التي يمكنهم ان يوجهوها اليه - فضلاً عن كونه كاتباً يفكر برأسه - هي انه كان مناصراً على الدوام للثورة الكوبية ، وأصبح نصيراً كذلك للعملية الثورية النيكاراغوية فيما بعد . وكارلوس فوينتس الذي يعلن صراحة عن افكاره السياسية بنفسه كلما وجد الى ذلك سبيلاً ، ويفعل ذلك حتى في الولايات المتحدة ذاتها ، هو

شخص غير مقبول ، ويمنح تصريحاً مؤقتاً ولاجل محدود جداً . ان الكتاب والفنانين والاساتذة الجامعيين الاميركيين اللاتينيين الذين هم ضحايا نظام التفرقة كثيرون . فهم يسمحون لنا بالدخول الى الولايات المتحدة عندما نذهب لتقديم بعض الخدمات ، أما سوى ذلك ، فإنهم يرفضون منحنا التاشيرة متذرعين بالحجة البالية عن وجود علاقات بالشيوعية .

وفي هذا المنحى ، فإن قضية الناقدة الفنية الارجنتينية مارتا ترابا ، والاستاذ والناقد الارغوايي إنخل رامايشكل فضيحة خاصة جداً . فبعد ان خدما لسنوات طويلة في جامعة ميريلاند ، ابلغا دون مواربة بوجوب مغادرتهما البلاد . وعرضت على انخل راما اكثر الخيارات إذلالاً : ان يستانف القرار بالادلاء بتصريح علني يتبرأ فيه من ميوله الشيوعية المزعومة . اما مارتا ترابا ، فقد حظر عليها حتى مثل هذا الخيار .

ان هذا كله لا يبدو لي سخيفاً وحسب ، بل وغير معقول كذلك : فإذا كانوا يمنعون دخولنا ، فإن المنطق يستدعي منهم ان يمنعوا كتبنا كذلك . ولو ان المواهب الخفية في وزارة العدل الامريكية فكرت بالامر مرتين ، لتوصلت الى ما كان هتلر قد اكتشفه من قبل ، وهو ان الكتب اشد خطورة من مؤلفيها .

وكون هذا الامر لا يهم حكومة الولايات المتحدة ، فإنه يجعلنا نفكر بان منعنا من الدخول ليس عملاً للدفاع عن المجتمع الامريكي ، كما يدعي حكامه ، وانما هو مجرد عقاب امبراطوري ضد من ينتقدون اولئك الحكام .

كثيراً ما قلت إن قلبي لا يتحمل مشاركتي في دفن اصدقائي . ولكنني في الثاني من شهر تشرين الثاني الماضي ، وهو يوم جميع الموتى ، أردت مرافقة زوجة شخص عزيز جداً لحضور مراسم احراق جثته . كان الجسد قد امضى تلك الليلة في النزل الجنائزي التابع لوكالة غايوسو لدفن الموتى ، في جادة فيلكس كويفاس بمدينة مكسيكو . وكانت الوكالة المذكورة قد انجزت جميع المعاملات الخاصة بالاحراق والنقل الاخير الى محرقة أجساد الموتى . كان الموعد المحدد هو الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وجميعنا كنا نظن ان العملية ستكون مجرد امر تقني ، بلا طقوس من اي نوع ، ويمكن لها ان تستغرق نحو ساعتين . عندما وصلنا الى المكان ، أرونا جثثاً أخرى تنتظر الدور ، وقالوا ان جثة صديقنا ستنتظر حتى الساعة الخامسة مساء على الاقل . في صالة الانتظار الكئيبة والمثلجة ، التي لا وجود فيها لوردة واحدة ولا لمقعد بائس واحد يمكن الجلوس عليه ، كانت توجد مجموعة من التوابيت المستعملة ، مصفوفة على الجدار بوضع عامودي ، وكانت تلك التوابيت قد استخدمت ممن اتخذوا الاحتياطات وماتوا مبكرين . فقد باعتها وكالات الدفن واستخدمت للسهر على الموتى ولنقلهم ، انما كان واضحاً ان الاقرباء الذين دفعوا ثمنها ذهباً ، لم يعودوا بحاجة اليها ، لذلك كان هناك من سيتولى بيعها ثانية الى موتى

مستقبلين . قال لنا سائق العربة التي حملت جثمان صديقنا : « لماذا لا ترجعوا غداً وتحاولوا ان تكونوا اول من يصل ؟ » . ان هذا السؤال وحده ، الذي صاغه شخص يعرف دون ريب خيراً منا مآسي البيروقراطية المأتمية ، جعلنا ندرك نوعية اليوم الذي ينتظرنا .

تولت الامر أنا ماريا بيكانيناس ، وروت تلك التجربة للصحافة في رسالة يجب الا تمر مرور الكرام ، لأنها ليست الا عينة صغيرة من الخذلان الذي يجد فيه الأحياء انفسهم أمام الوكالات الجنائزية ، بعد ان يكونوا قد دفعوا نفقات الخدمة كاملة . ومنذ بضعة شهور ، روى فيرناندو بينيتس لاحدى الصحف كذلك، كيف عاملت وكالة غارسيو اسرة كاتب لم تكن تملك المال لدفع تكاليف الجنازة ، وهي نفقات ربما تكون اكبر من كل ما تقاضاه الصديق الميت طوال حياته من حقوق التاليف . كما اهتمت مجلة (الهيئة الوطنية للمستهلك) ، وفي عدة مناسبات ، باسعار الموت الباهظة في المكسيك ، لكن موعظتها ، مثل غيرها من المواعظ حول موضوعات فانية ، ضاعت الى الأبد في البرية . حتى لكان وكالات دفن الموتى في العالم باسره ، تتمتع بامتياز خاص يضعها بمنجى من أية عقوبة قد تتخذ ضد استغلالها .

روت أنا ماريا بيكانيناس ان الموظف الوحيد الذي وجدته في محرقة الجثث قدم لها تفسيراً واقعياً لدرجة انه بدا أقرب الى تفسير خباز ، فقد قال لها : « الفرن مشغول ، والفران في الداخل وهو لن ينتهي من « التفرين » قبل ثلاث ساعات » . ولم تكن هنالك أية معلومات اخرى . حينئذ اتصلت أنا ماريا بيكانيناس بوكالة غايوسو ، وهي تظن انها قد تحصل على مساعدةخاصة بعد ان دفعت للوكالة جميع التكاليف كاملة ، فاعلمها موظف قال ان اسمه ريكاردو لوبيث ، بأن مسؤولية الوكالة تنتهي لحظة خروج الجثة من المبنى الجنائزي .

واغلق الهاتف . عادت أنا ماريا بجسارتها الكتلانية ، الى طلب الرقم ذاته ، فرد عليها عندئذ موظف آخر ، أوضح لها بصوت له نبرة أصوات تجار الموت ذات التلاوين قائلاً إنه لا يستطيع عمل اي شيء لتعجيل الاحراق . وربما دون ان يدري ، اخترع مثلاً كئيباً ، حين قال لها : « لسوء الحظ ، ان المحظوظ هو من يصل أولاً » . ولم يكن ممكنا عمل اي شيء بالفعل . أما الخدمة والمساعدة والتفهم المتعاقد عليه مع بائعي الموت ، الذين يصل بهم الامر الى الوعد بإدخال المتوفي الى السماء بصحبة أبواق ملائكية ، فقد ذهبت كلها أدراج الرياح .

لقد كانت تلك مأساة اخرى ، لكنها ربما كانت الأقل خطورة بين ما يحدث من مآسي في كل لحظة ، في العالم ، بسبب جشع وكالات الدفن وفظاظة قلوبها الحجرية . ففي المكسيك ، حيث تجارة الموت هي احدى اقسى التجارات واكثرها ازدهاراً ، وحيث اعتاد الاستغلال على غزو اكثر مناطق الادب الخيالي نفوراً ، تقول نشرة دعائية لاحدى وكالات الدفن : « الخدمة كلها لا تكاد تستغرق عشر دقائق او خمس عشرة دقيقة في اقصى الحدود . وهي ليست بالامر المحزن ، بل يمكن الذهاب اليها وكأن المرء ذاهب الى نزهة . والمكان جميل ، فهو ليس مدفناً تقليدياً ، وانما هو ضريح حديث ، مفروش بالسجاد ، ومزود بالانارة ، والتكييف ، وفيه أيضاً فتحات لتهوية السراديب » .

لقد قدرت هيئة المستهلك انه يوجد في المكسيك ١٩٥ وكالة دفن نظامية مسجلة ، و ١١٠ وكالات اخرى تعمل بطريقة شبه سرية . وهذه الاخيرة على وجه الخصوص محكومة بقوانين العرض والطلب الآنية ، وتدخل في منافسة وتدافع على الجثث مرعبين امام أبواب المشافي وفي ممراتها . ولكن ، حتى في جنازات الاثرياء ، فإن الوكلاء الباعين يفتقرون لأي قاعدة محددة لاسعار خدماتهم . انهم يتصرفون في أغلب الاحيان بناء على مظهر الزبون وحالته في لحظة عقد الصفقة . وسعر التابوت هو الذي يحدد نوعية الخدمة كلها ، اذ لا

يمكن الجمع بين تابوت غالي الثمن وخدمة متواضعة ، او العكس . والموت في نهاية الامر ليس الا رحلة ، مهما كانت أبدية ، والوكالات لا تجد سببا يمنعها من تنظيم خدمات الموت كما لو كانت رحلة سياحية جميع الخدمات فيها مضمونة ، بما في ذلك احتمالات الحب العابر . انها تجارة خرافية : ففي عام ١٩٧٦ ، بلغت أرباح وكالات الدفن الشرعية وحدها ، في المكسيك ، ١٧٥ مليون بيزو .

لقد جاءنا هذا المفهوم للدفن من الولايات المتحدة ، وهو امر في منتهى البساطة هناك : فابهة الموت هي ضرورة أولية . والامريكي المتوسط لا يتمتع في أية لحظة من حياته بمستوى حياة أرقى من مستوى موته ، ولا يكون في أية لحظة أجمل مما يكون عليه وهو في التابوت : حتى ان افراد اسرته بالذات ، يصابون بالذهول لمدى مناسبة التحنيط له ، ولمدى الرقة التي يتسم بها ، ولمظهر التفهم والمحبة التي يبديها وهو يسند رأسه الى وسادة الموت ، وربما تألموا في سرهم لانه لم يتم التوصل بعد الى امكانية تحنيط من هم قساة المعشر وهم على قيد الحياة . لكنه وهم باهظ الثمن ، تزدهر من ورائه تجارة من أقسى التجارات وأكثرها قذارة في العالم . لقد قرأت منذ سنوات عديدة حكاية مرعبة ، في كتاب مذهل ، حول التجارة الجنائزية في الولايات المتحدة . فارملة من الطبقة المتوسطة ، انفقت كل مدخراتها لتقدم لزوجها الميت جنازة اكثر ابهة من امكانياتها الواقعية . وكان كل شيء يبدو محكماً ، الى ان اتصل بها احد موظفي الوكالة تلفونياً ليقول لها ان الجثة أطول مما هو وارد في العقد ، وانه عليها بالتالي ان تدفع مبلغاً اضافياً . لم يكن قد بقي في حوزة الارملة سنت واحد . فقدم لها الموظف حينئذ الحل بصوته الرخيم ، الذي يشبه اصوات جميع ابناء مهنته قائلاً : « في هذه الحالة ، ارجو منك ان تمنحينا تفويضاً لننشر قدمي الجثة » . لكن الارملة المسكينة وجدت كيفما اتفق المال الذي لم تكن تملكه ، كي تمنحها وكالة الدفن الرحمة وتدفن زوجها كاملاً .

الكاتب السينمائي في الظل

في « فريجين » البلدة البحرية القريبة من روما ، مات صديقي العزيز فرانكو سوليناس ، احد افضل كتّاب السينما في عصرنا . أظن انه لم يتمكن من انهاء السيناريو الاخير الذي كان يكتبه ، والذي كان قد بدأ العمل به مع المخرج كوستا غافراس ، حول القضية المعاصرة والمؤثرة للشعب الفلسطيني الذي ما يزال بلا أرض . لقد كان على عدد من المخرجين العالميين المشهورين ان ينتظروا دورهم ليكتب لهم السيناريوهات ، واعتادوا الانتظار لفترات طويلة تضطرهم اليها التزامات فرانكو سوليناس الكثيرة . وقد كان على اية حال ، حالة فريدة في وسطه : لم يكن يقبل مطلقاً العمل في أكثر من سيناريو واحد في الوقت ذاته ، وكان يكرس له كل طاقاته وصبره اللانهائي ونقده الذاتي الصارم ، ويعمل فيه لوقت يستحيل عليه ان يقدره مسبقاً . فقد كانت سنة كاملة من العمل اليومي هي الحد الوسطي لكل سيناريو ، وكانت رائعته التي لا يرقى اليها الشك هي سيناريو فيلم (معركة الجزائر) الذي كتبه للمخرج جيلونونتيكو رفو ، كما كتب لهذا المخرج ايضاً سيناريو فيلم La queima-da وكتب لكوستا غافراس (حالة حصار) ، ولجوزيف لوسي (مستركلين) . ليست قائمة افلامه بالطويلة ، ولكنها جميعها من نوعية عالية ، وبالنسبة لذوقي ، فقد كان واحداً من الحرفيين الأكثر صرامة في مهنة من اكثر المهن صعوبة

وأقلها منفعة ، وأشدها جحوداً كذلك ، ودليلي على هذا الامر الاخير هو ان خبر موت فرانكو سوليناس مرّ دون اهتمام تقريباً ، حتى في المنشورات المتخصصة ، وقلة من اصدقائه الشخصيين ومن المعجبين ، عرفنا حقاً ما الذي فقدناه بموته .

إنها على كل حال مناسبة للتامل في مصير البقاء في الظل الذي يعانيه كتّاب السينما ، فلا أحد يعرف من هم ، اللهم الا إذا كانوا معروفين ككتّاب يكتبون في جنس أدبي آخر ، وفي مثل هذه الحالة يميلون هم انفسهم الى التفكير بان عملهم في السينما هو العمل الثانوي ... مجرد وسيلة للحصول على لقمة العيش . المجلات السينمائية تركز قبل كل شيء على المخرج - وليس ذلك دون وجه حق - وقليلا ما تتذكر انه لا بد لكل فيلم ، قبل ان يصل الى الشاشة ، من المرور في اختبار النار عبر الكلمة المكتوبة ، أي أن الكتّاب ، وليس المخرجون ، هم الذين يؤمنون القاعدة الادبية التي يستند إليها الفيلم . وهذا للحقيقة ليس بالأمر الحسن ، سواء للأدب أو للسينما .

بعد الحرب العالمية الثانية ، عاش كتّاب السينما ربع ساعاتهم المجيدة ، حين تصدر الواجهة كاتب السيناريو سيسر زافاتيني ، وهو ايطالي واسع المخيلة وذو قلب مصنوع من نبات الأرضي - شوكي ، الهم السينما في عصره نفحة انسانية لا سابق لها . وكان المخرج الذي حقق أفضل سيناريوهاته هو فيتوريو دي سيكا ، صديقه العظيم ، فقد كانا متطابقين لدرجة أنه لم يكن من السهل معرفة أين ينتهي أحدهما وأين يبدأ الآخر . وكانا معاً نجمي الواقعية الجديدة الكبيرين ، وفي سمائهما كانت هناك نجوم أخرى ساطعة مثلهما ، كما هو روبيرتو روسيليني ، وقد حققا معاً (لصوص الدرجات)، و (معجزة في ميلان)، و (هومبيرتود) ،، وافلام اخرى لا تنسى . في ذلك الحين ، كان

الحديث يدور عن افلام زافاتيني مثلما يدور عن أفلام بيرتولوتشي : وكان الأول منهما هو المخرج . وعملياً ، كانت قليلة جداً في ذلك الزمان سيناريوهات الافلام التي لم تمر من خلال مندفة زافاتيني المنقحة ، الذي كان اسمه يظهر في نهاية لائحة أسماء المشاركين في صنع الفيلم ، وذلك لمجرد ان الاسماء كانت ترد حسب الترتيب الابجدي ، وقد كان غزير الانتاج ، لدرجة ان من يعرفونه في ذلك الحين يقولون إنه كان يملك أرشيفاً ضخماً ، مترعاً بمؤلفات موجزة على جزازات . وكان المنتجون الذين يفتقرون دوماً الى موضوعات لافلامهم ، يلجأون اليه يائسين . وفي احدى المرات ، طلب منه احدهم بشكل مستعجل قصة حب ، فسأله زافاتيني بكل جدية : « أتريدها بكلب أم دون كلب؟» . وهناك جيل بكامله من المتحمسين للسينما ، ذهبوا للدراسة في المركز السينمائي التجريبي في روما وهم يأملون ان يكون زافاتيني هو من يعلمهم .

لقد كان حالة استثنائية ، لان مصير كاتب السينما في الواقع هو مجد سري في الظل ، ومن يقنع بهذا المنفى الداخلي هو وحده الذي يملك امكانية البقاء على قيد الحياة دون مرارة . ليس هناك عمل آخر يتطلب مثل هذا القدر من المذلة ونكران الذات ، بل واكثر من ذلك : فعلى كاتب السيناريو ان يعتبر نفسه عاملاً عابراً في عملية خلق الفيلم ودليلاً حياً على « الشرط التبعي الذي يقوم عليه الفن السينمائي . فما دام هذا الفن بحاجة لكاتب ، اي أنه بحاجة لمساعدة فن مجاور ، لن يتمكن من التحليق بجناحيه وحدهما . هذا واحد من الحدود التي تقف في وجه الفن السينمائي ، اما الحد الآخر ، وهو اكثر خطورة بالطبع ، فإنه يتمثل في ارتباطه الصناعي ، فالمخرج نفسه ينتهي الى ان يدرك ، عاجلاً او آجلاً ، انه لا يملك كثيراً من حرية التصرف ضمن اطار الابداع الضيق الذي يتيحه له المنتج من جهة ، والأشباح التي يعيره إياها الكاتب من

جهة أخرى . وانها لمعجزة ان المخرج ما يزال قادراً علي الاحساس بأنه قد توصل الى التعبير عن نفسه بعمق في هذا الزقاق المخلخل ، لهذا فإنني اشعر بالدهشة الكبرى والسعادة العظمى كلما وجدت فيلماً قادراً على جعلي أبكي ، وهذا هو ما يبحث عنه احدنا في اعماق روحه عندما تنطفىء انوار الصالة .

في ايام المقابلات الصحفية الكثيرة التي اعيشها ، هناك سؤال يتردد دوماً حول علاقتي بالسينما . وقد كانت اجابتي الوحيدة على هذا السؤال دائماً هي : انها علاقة زواج غير موفق . بمعنى انني غير قادر على العيش دون السينما وغير قادر على العيش معها ، والسينما تعاني الوضع ذاته في علاقاتها معي ، وذلك استناداً الى كمية العروض التي اتلقاها من المنتجين . ومذ كنت طفلاً ، حين كان الكولونيل نيكولاس ماركيز يصطحبني الى اراكاتاكا لرؤية افلام توم ميكس ، وفضول السينما يجيش في داخلي ، فقد بدأت مثل جميع اطفال ذلك الزمان بالمطالبة باخذي الى ما وراء الشاشة لأرى كيف هي احشاء ذلك الاختراع . وكانت دهشتي عظيمة عندما لم ار شيئاً سوى الصورة ذاتها مقلوبة ، فكان لذلك في نفسي وقع كوقع دوامة لم استطع الخلاص منها لوقت طويل . وحين اكتشفت السر أخيراً ، بدأت تعذبني فكرة اعتبار السينما وسيلة تعبير اكثر كما لا من الادب ، ولم يمكنني ذلك اليقين من النوم الهادىء لوقت طويل ، ولهذا السبب كنت واحداً من كثيرين سافروا الى روما على امل تعلم اسرار زافاتيني السحرية ، وكنت كذلك واحداً ممن لمحوه عن بعد .

كنت قد كسبت في كولومبيا ذلك الزمان معركة سينمائية ، فحين وصلت للعمل في جريدة (الاسبيكتادور) في بوغوتا ، عام ١٩٥٤ ، كان النقد السينمائي الوحيد الشائع في البلاد هو النقد المهادن ، فإذا لم يكن كذلك ، هدد اصحاب صالات العرض بالغاء الاعلان عن الافلام ، وهذا مصدر دخل

معتبر للصحف . وبمساندة المديرين في الجريدة ، الذين قبلوا المخاطرة ، كتبت في ذلك الحين الزاوية المنتظمة الاولى في النقد السينمائي ، لمدة سنة . وأصحاب صالات العرض ، الذين استقبلوا ملاحظاتي النقدية المضادة ، وكأنها جرعات من زيت الخروع ، في أول الامر ، انتهى بهم المطاف الى الرضى بها كوسيلة للتعامل مع جمهور حسن التوجيه .

ثم جئت الى المكسيك منذ اكثر من عشرين سنة ، بوهم المشاركة في صنع السينما . وحتى بعد ان كتبت سيناريوهات لم اكن اتعرف عليها فيما بعد على الشاشة ، بقيت على قناعتي بان السينما ستكون الصمام الذي سأفلت منه اشباحي ، وقد تأخرت زمناً طويلاً ، للتوصل الى القناعة بأن الامر لن يكون كذلك . وفي صباح يوم من ايام تشرين الاول ١٩٦٥ ، وكنت مرهقاً من رؤية نفسي وعدم التعرف عليها ، جلست مقابل الآلة الكاتبة ، مثلما كنت افعل كل يوم ، ولكنني لم انهض في تلك المرة الا بعد ثمانية عشر شهراً ، ومعي الاصول الناجزة (لمئة عام من العزلة) : فادركت اثناء ذلك العبور للصحراء انه ليس هناك من عمل للتحرر الفردي اروع من جلوسي وراء آلة كاتبة لإبتداع العالم .

شيخوخة لويس بونويل الشابة

السيرة الذاتية الرائعة التي كتبها لويس بونويل ، تبدأ بفصل باهر عن الملكة الانسانية التي تتحكم بنا وتقلقنا اكثر من سواها : الذاكرة . ويروي « دون لويس » ان امه قد فقدت هذه الملكة تماماً في السنوات العشر الاخيرة من حياتها ، وانها كانت تقرأ المجلة ذاتها مرات كثيرة بالمتعة الاولى ذاتها ، لأنها كانت تبدو لها جديدة في كل مرة . ويقول : « وصل بها الامر الى عدم التعرف على ابنائها ، وعدم معرفة من نحن ، ومن تكون هي نفسها . وكنت ادخل عليها ، فاقبلها واجلس بعض الوقت الى جانبها ، ثم اخرج واعود للدخول » . فكانت تستقبله بالابتسامة ذاتها وتدعوه للجلوس وكأنها تراه لأول مرة ، ودون ان تتذكر ما هو اسمه .

ما لم يقله دون لويس ، وربما ما لا يعلمه احد علم اليقين ، هو ما إذا كانت امه واعية لمحنتها . قد لا تكون كذلك . وربما كانت حياتها تبدأ في كل

(*) ليمبوس او المطهر : هو المكان او المرحلة الانتقالية التي تبدأ بعد الموت حيث يستقر فيها من لم يرتكب ، خطيئة مميتة ، يستحق عليها عقاب الجحيم ، قبل انتقاله الى نعيم الله ، حسب ايمان الكنيسة الكاثوليكية .

لحظة وتنتهي في اللحظة التالية ، في ومضة وعي ودون ألم لاختفاء ذكرياتها ... ليس ذكرياتها السيئة وحسب ، وانما ذكرياتها الطيبة ايضاً ، وهذه الاخيرة هي الاسوأ في نهاية الامر ، لانها تشكل نواة الحنين . ومع ذلك ، لم تكن هذه الاحجية هي اكثر ما فتنني في ذلك الكتاب الرائع ، وانما القوة التي دفعني فيها الى التفكير ، للمرة الاولى ، بشئ يبقى على الدوام بعيداً عن اهتماماتنا : واعني يقين الشيخوخة . لقد قرأت في حينه ، وبتقدير كبير ، كتاب سيمون دو بوفوار حول الموضوع - وربما كان الكتاب الاكثر دقة وتوثيقاً بين كتبها - لكنه لم يثر بي ، في اي صفحة من صفحاته ، مثل ذلك الاحساس بالكارثة البيولوجية التي يتحدث عنها لويس بونويل . ففي الستين من عمره - كما يقول - لم يعد يتذكر اسماء الاشخاص بالسهولة التي كان يتذكرها بها في السابق . ثم بدأ ينسى بعد ذلك المكان الذي ترك فيه ولاعته ، واين وضع المفاتيح ، وكيف كان اللحن الذي سمعه في مساء يوم ماطر في بياريتز . واصبح ذلك يقلقه في الثانية والثمانين ، لانه رأى فيه بداية تحول سينتهي به الى ليمبوس(*) النسيان الذي عاشت فيه امه سنواتها الاخيرة . ويقول : « لا بد من البدء بفقدان الذاكرة لكي ننتبه الى ان هذه الذاكرة هي التي تكوّن حياتنا » . ولحسن الحظ ، فإن كتاب لويس بونويل يثبت انّ ماساته لم تكن في فقدان الذاكرة ، وانما من الخوف من فقدانها .

انه في الحقيقة كتاب ذكريات ، وامتلاك القدرة على اعادة بناء الذكريات بمثل تلك الطريقة المعاشة لهو ماثرة ترفض مباشرة اي تهديد بفقدان الذاكرة الشيخوخي . ولقد قلت منذ وقت قريب لاحد اصدقائي انني استعد لكتابة مذكراتي ، فرد علي بالقول انني لم ابلغ بعد السن المناسبة لذلك . فقلت له : « اريد ان ابدأ وانا ما أزال أتذكر كل شئ . لأن معظم المؤلفات تكتب حين لا يتذكر مؤلفوها شيئاً » . لكن هذا الكلام لا ينطبق على لويس بونويل . فدقة

ذكرياته عن اسلوب حياة القرون الوسطى في « كالاندا » ، وعن المدينة الجامعية في مدريد – التي كان لها اثر كبير في جيله – وعن مرحلة السوريالية ، وبشكل عام عن لحظات بارزة كثيرة في هذا القرن ، تؤكد انه كان دوماً في ذلك الشيخ الذي لا يهزم بذرة من الشباب لا تنطفئ ابداً . صحيح انه فقد حاسة السمع ، مما حرمه متعة الموسيقى التي لا تضاهى . وانه كان عليه ان يقرأ بمشقة ، مستخدماً عدسة مكبرة وشعاع نور خاص لان بصره كان يضمحل ، وكان يقول كذلك انه فقد الرغبة الجنسية . وقد انجز فيلمه الاخير : (هذا الشئ الغامض في الشهوة)، منذ عشر سنوات ، وقدر هو نفسه انه سيكون الفلم الاخير . مما يعني انه كان مريضاً حقاً ، وضجراً لتوقفه عن العمل ، اضافة الى احساسه بأن اصدقاءه قد هجروه ، وتفكيره بالموت بشكل متزايد وأكثر حدة . لكن رجلاً كان قادراً على تحليل حياته بالطريقة التي فعلها في مذكراته ، وترك شهادة مثل شهادته عن عالمه وعصره ، لا يمكن له ان يكون ذلك الشيخ العاجز الذي ظن نفسه انه صار اليه .

ان المرء ليشعر بالسلوى حين يفكر بان الشيخوخة ليست سوى حالة معنوية . وعندما نرى مرور شيخ مثقل بروحه نميل الى الاعتقاد بانها محن تصيب الآخرين فقط ، ونفكر – وعسى ان يكون ذلك صحيحاً – ان ارادتنا غير قادرة على منع الموت ، ولكنها قادرة على سدّ الطريق امام الشيخوخة . لقد التقيت منذ سنوات في قاعة انتظار احد مطارات كولومبيا بزميل دراسة في مثل عمري ، وكان يبدو اكبر من سنه الحقيقي بمرتين . وكانت نظرة متفحصة سريعة كافية لاكتشاف ان شيخوخته المبكرة ليست واقعاً بيولوجياً بقدر ما هي مجرد اهمال من جانبه . ولم استطع يومها كبح نفسي ، وقلت له اضافة الى اشياء اخرى كثيرة ، ان سوء حالته ليس من الرب ، وانما منه هو نفسه ، وان لي الحق بتانيبه لان اهماله لا يجعله يشيخ وحده ، وانما يجعل جيلنا كله

يشيخ . ومنذ زمن قريب ، طلبت من صديق ان ياتي الى مكسيكو . فرد علي في الحال : « لن اذهب الى هناك ابداً . لاني لم اذهب الى مكسيكو منذ عشرين سنة ، ولا اريد ان ارى شيخوختي في وجوه اصدقائي » . فادركت فوراً انه يتبع القاعدة نفسها التي اتبعها : عدم تسهيل اي سبيل امام الشيخوخة ووالدي الذي توفي عن اثنتين وثمانين سنة ، كان يتمتع بحيوية ومظهر استثنائيين وكنا ، نحن اولاده ، نعلم ان سره ضد الشيخوخة كان شديد البساطة : لم يكن يفكر بها .

ثمة استثناءات بالطبع ، استثناءات جيدة وسيئة ، والافضل في مثل هذه القضية عدم التفكير الا بالاستثناءات الجيدة . لقد كتب الكاتب الكوبي ميغيل بارنيت سيرة حياة عبد قديم . واثناء المقابلة ، تمكن بارنيت من التاكد فعلاً ان عمر ذلك العبد الشيخ هو المئة واربع سنوات التي يدعيها ، وكانت ذاكرته على خير ما يرام ، حتى لتبدو وكانها ارشيف حي لتاريخ بلاده . من جهة اخرى ، فإن الدكتور غريف ي . بيرد – الذي تستشهد به سيمون دي بوفوار – قد اجرى دراسة على اربعمئة شخص تتجاوز اعمارهم المئة سنة ، وكانت نتائجه مواسية ، فالدراسة تنتهي الى القول : « ولدى معظمهم مشاريع محددة للمستقبل ، وهم يهتمون بالقضايا العامة ، ويبدون حماساً شبابياً ، ويتمتعون بشهية متينة ومزاج شديد المرح ، ومقاومة استثنائية . انهم متفائلون ولا يبدون خوفاً من الموت » . اما فيما يتعلق بالنشاط الجنسي للمسنين ، فهناك يقين في هذا المجال ، بان فترة مراهقة ثانية تبدأ منذ سن التسعين . ويبدو ان الشرط الوحيد في هذا الشان هو ان يكون الشخص المعني قد امضى حياته السابقة كلها نشيطاً . فلا شئ يسبب البرود مثل التواني وعدم المبالاة . ولدي صديق عمره /٨٥/ سنة ، اتهمه احدهم بأنه عجوز ذو نفس خضراء لانه يحب

الفتيات ذوات الاربعة عشر عاماً . وقد كان رده ساحقاً : الفتيان الذين في الرابعة عشرة يحبونهن كذلك ، وليس هناك من يقول عنهم انهم شيوخ ذوو نفوس خضراء .

المشكلة هي ان المجتمع الذي يتكلف التقدير والاحترام ، يجعل منا شيوخاً بالقوة . ويقول مثل فلاحي : « بالهندية الاكبر سناً تجرب السهام » . ومنذ بعض الوقت ، عندما اقترحت على منتج سينمائي نقل (ليس لدى الكولونيل من يكاتبه)الى السينما ، رد عليّ مباشرة : « الشيوخ لا يبيعون انفسهم » . وفي فرنسا – حيث كانت نسبة المسنين عام ١٩٧٠ هي اعلى نسبة في العالم – تم التوصل الى اقرار التقاعد في سن الستين . انها فضيحة . وافضل دليل على عدم عدالة هذا القرار هو انه لا توجد كائنات اشد عدوانية في هذا العالم من المسنين الفرنسيين : فهم ينازعون الشباب على سيارات التكسي بضربهم بالمظلات ، ويخرقون صفوف انتظار الدور مستخدمين مرافقهم ، وهم مستعدون لاقتراف وقاحة مدمرة في اي شجار في الشارع . ولقد كنت اتساءل على الدوام اذا ما كان هؤلاء الشيوخ يعلمون انهم شيوخ . لست ادري . لكنني اعرف فقط ان رجلا في الستين من عمره ، يشعر انه ما زال في اوج الحياة ، اعطى الاسبوع الماضي لطفل في الخامسة من عمره ورقة نقدية من فئة الخمسين بيزو . فهرع الطفل سعيداً ليري اباه الورقة النقدية ، ويقول له : « لقد اعطاني اياها ذاك العجوز الذي هناك » . والعجوز الذي كان هناك ... هو انا طبعاً .

احدى حماقات انطوني كوين

« يمكن لرواية (مئة عام من العزلة) ان تكون عملاً مثالياً لمسلسل تلفزيوني من خمسين ساعة ، لكن غارسيا ماركيز لا يريد ان يبيعها » ، هذا ما صرح به لمجلة اسبانية ، الممثل انطوني كوين ، الذي اضاف : « لقد عرضت على غارسيا ماركيز مبلغ مليون دولار ولم يوافق ، فهو شيوعي ولا يريد ان ينتشر خبر تلقيه مبلغ المليون دولاراً ، لانه جاء الي بعد العشاء ، وقال لي على انفراد : كيف خطر لك ان تعرض علي هذا المبلغ من المال امام الملأ ؟ اعرضه عليّ في مرة اخرى عندما لا يكون هناك اي شاهد » .

الشئ السئ الوحيد في هذا التصريح ، اضافة الى كونه طفوليا ، هو انه غير صحيح . ولان الحقيقة هي – كالعادة – اكثر تشويقاً ، فإنني اريد ان اروي القصة كما حدثت في مكسيكو ، منذ نحو عشر سنوات . فصحفيو المطار، الذين اصبحوا من اصدقائي لكثرة ما نلتقي ببعضنا بعضاً ، قالوا لي ان انطوني كوين قد اعلن الليلة الماضية ، من التلفزيون المكسيكي انه مستعد لمنحي مليون دولار ، مقابل حقوقي في نقل (مئة عام من العزلة) الى السينما . وقد قلت للصحفيين يومها ، ونشروا كلامي في كل مكان اليوم التالي ، انني مستعد لبيع حقوقي شرط الا يكون الثمن مليون دولاراً فقط ، وانما مليونين من الدولارات : مليون لي ، ومليون للثورة في اميركا اللاتينية . في ذلك الاسبوع ،

وقبل ان يلتقي بي ، ردّ عليّ انطوني كوين من خلال التلفزيون ، فقال : « انا اعطيه مليون دولار له ، اما المليون الآخر فليحصل عليه من جهة اخرى » . وقد بدا لي رده صائبا ومسليا لدرجة اني قبلت الدعوة اللطيفة التي وجهها بعض الاصدقاء لتناول العشاء مع انطوني كوين . كان عشاء ممتعاً . وكان انطوني كوين ، رغم بلوغه الثانية والستين ، ما يزال يحتفظ بحيوية مندفعة ، وبدا لي شخصا لطيفا وودوداً . وقد تحدث في كل شئ ، لكنه لم يقل كلمة واحدة عن عرضه الذي قدمه في التلفزيون ، وقد اراحني ذلك كثيرا . وكانت تلك هي المرة الاولى والاخيرة التي اراه فيها .

ما لم يعرفه انطوني كوين ابداً ، هو انه قبل زمن طويل من تقديم عرضه في التلفزيون ، كانت هناك شركة مختلطة لمنتجين من الولايات المتحدة واوروبا قد عرضت مليوني دولار مقابل حقوق نقل (مئة عام من العزلة) الى السينما . الانطباع الذي بقي لدى كثيرين من أصدقائي هو ان الممثل الكبير ، الذي تحول الى الانتاج ، انما عرض ما عرضه ليوحي مفاخراً بانه يتقدم ورهن يديه مليون من الدولارات . ولم تكن تلك هي المرة الاولى التي يحدث لي مثل ذلك . ففي نهاية الستينات ، وفي برشلونة ، ظهر في التلفزيون ناشر ، تتدلى على صدره سلسلة ساعة ، ويدخن سيجارا كوبيا ، ويحمل مليوني بيزتا نقداً - وكانت تساوي في ذلك الحين نحو ٧٠ الف دولار - ، وقال وهو يلوح بالاوراق النقدية ان ذلك المبلغ هو الدفعة الاولى على الحساب ، التي يقدمها لي مقابل حق نشر كتابي التالي . وفي تلك الليلة بالذات ، كسب ذلك الناشر طبعاً ، وبالمجان ، حق عدم نشر كتابي التالي او اي كتاب آخر من كتبي .

الانكليز يرون في حديث المرء علناً عن الابناء والمرض والمال نوعاً من عدم اللباقة . وبما انني لست انكليزيا - والحمد لله - وانما من شارع كابيه

مايور في اراكاتاكا ، فإن ما لدي من لباقة هو اقل شانا من ذلك ، فانا احب الحديث عن ابنيّ ، لانهما مثل امهما : واثقان من نفسيهما وذكيان وجديان . واحب الحديث عن فرحتي في الاثنى عشرية ، التي لا تستكين الا عندما اكتب ، لان الاصدقاء لم يوجدوا لمشاركة احدنا حياته الطيبة فقط ، وانما للتخوزق معه كذلك . واحب ان اعلن عن الاموال التي اكسبها وعما ادفعه ثمنا لكل شئ ، لاني انا وحدي من يعرف ما يكلفني التستر على ذلك من مشقة ، وارى ان عدم اعلانه ليس عدلا . والاستثناء الوحيد في هذه القاعدة هو انني لا اتحدث ابداً عن المال مع الناشرين والمنتجين السينمائيين ، لان لدي وكيلاً ادبيا يفاوض عني وبشكل افضل مما استطيعه انا : اولا : لانه امرأة ، وثانياً : لانها كتالانية . وهناك ناشرون كثيرون يمقتونها لشراستها في الدفاع عن قروش الكتّاب ، وخصوصاً الكتّاب الشباب والمعوزين ، ويوم يتوقفون عن مقتها سابدأ بالارتياب بانها قد انتقلت الى الصف المقابل .

ان تجربتي مع المنتجين السينمائيين حول (مئة عام من العزلة)، هي من اكثر التجارب غرابة في حياتي . فهم لا يتكلمون في الغالب الا عن المال ، ولكنهم حين تدق ساعة الجد ، يصبحون جميعهم مثل انطوني كوين : فلا تجد لهم اثرا في اي مكان . انهم فصيحون ، ومترددون ، وغير متبصرين . زوجتي مرسيدس تخافهم ، لانهم يجيئون الى الموعد الاول وهم يحملون مشاريع فلكية ، فيمحقون كل ما في البار البيتي ، وكل ما في البيت من مؤنة ، ويتصلون بجميع انحاء العالم من هاتفنا الخاص ، دون ان يسالوا : بكم نحن مدينون لك ؟ ثم لا نعود نعرف اي شئ عن اخبارهم . فالايطالي باولو بيفي ، زوج الجميلة روسانا شيافينو ، جاء منذ نحو ثلاث سنوات الى بيتنا في كويرنا باكا ، وهو راغب في انتاج احدى قصصي القصيرة ، باخراج روي غيبرا . وقد ارسل الى هذا المخرج تذكرة الطائرة الى ريو دي جانيرو ، وتحدثنا جميعنا معاً في المشروع

طوال يوم احد بكامله وفي ذلك الاسبوع بالذات ، وفي مجلة فاريتي Variety الصادرة في لوس انجلوس - والتي لا يعلن فيها الا المنتجون المحظوظون - ظهر اعلان على صفحة كاملة عن الفيلم الذي سنصنععه ، وكانه قد انجز فعلاً وقد ذهب « بيني » ومعه نسخة بالانكليزية من القصة القصيرة ، ليقترح على فرانكو نيرو القيام بدور البطولة ، ووعد ان يتصل بوكلائنا لشراء حقوق قصتي القصيرة ، وتحديد اتعاب روي غيبرا . وكانت تلك هي المرة الاخيرة التي رأيناه فيها . والخبر الوحيد الذي وصلني عنه منذ ذلك الحين ، هو ما قاله لبعض الاصدقاء في روما ، من انه قد دفع لي ولروي غيبرا مبلغاً محترماً من الدولارات كدفعة على الحساب ، لنبدأ العمل في السيناريو ، واننا قد سرقنا ذلك المبلغ .

اما بيلي فريدكين - مخرج ومنتج فيلمي (المُعَزّم وعلاقة فرنسية -) فهو رجل مختلف لحسن الحظ ، ولكن عقليته هي عقلية جميع المنتجين الكبار . لقد حضر فريدكين الى مكسيكو منذ عدة سنوات ، حاملاً معه فكرة نقل (خريف البطريرك) الى السينما . انه شاب كامل كسب ثروة طائلة من افلامه ، وبعد ان اشترى طائرة خاصة ، كان يريد ان يهب ما بقي لديه من اموال الى المدارس العامة في بوليفيا . وكانت لديه افكار جذابة حول نقل روايتي الى السينما ، وتمكن من اقناعي بها . وفيما نحن نتحدث عن كل شئ ، روى لي ان مؤلف المعزّم ، وهي رواية من الدرجة الثانية ، قد تلقى مبلغاً متواضعا مقابل حقوقه في الكتاب ، ولكنه وافق بالمقابل على المشاركة في ارباح الفيلم ، فكسب سبعة عشر مليونا من الدولارات . وفهمت ان في ذلك نصيحة مهذبة لي ، وأخبرت وكيلتي بالامر . وعندما تحدث فريدكين معها حول حقوق مؤلف الكتاب ، قالت له اننا نوافق على الشروط نفسها ، التي عمل بها مع مؤلف المعزّم . فاتصل فريدكين بي تلفونياً ، وتخلى عن المشروع بالتهذيب ذاته الذي يؤدي به كل اعماله .

ولم اعد اعرف عنه شيئاً ، باستثناء ما قرأته في الصحف حين تزوج في باريس من جين موريه ، ثم عندما تطالقا بعد ذلك بوقت قصير .

الشخص الوحيد الذي لم يحدثني مطلقاً عن المال هو في رأيي الشخص الوحيد الذي يملكه في الواقع : واعني فرنسيس فورد كوبولا ، مخرج في مانيلا ، حدثه٤فيلم (العراب). اثناء عمل كوبولا في فيلم (القيامة الآن) مدير تصويره ، عدة مرات ، عن حلمه بنقل (مئة عام من العزلة) الى السينما وفي صيف ١٩٧٩ ، التقيت مع كوبولا في مهرجان موسكو السينمائي ، فدعاني لتناول العشاء بعد عدة أيام ، في مطعم صاخب وضخم جداً من مطاعم لينينغراد . تحدثنا قليلاً عن افلامه وعن كتبي ، وروى لي ما قاله مصوره عن مئة عام من العزلة ، لكنه لم يطرح في أية لحظة إمكانية نقلها إلى السينما . والشئ الوحيد الذي اثار اهتمامه حقا ، كان اخباره بان ابني الاكبر قد اجتاز دورة في الطهي الراقي بباريس . اذ ان كوبولا ، الاكول العظيم والطاهي من الطراز الاول ، سمح لنفسه حينئذ بالانقياد للالهام المفاجئ ، ودخل مطبخ المطعم مع ابني ليعدا معا الوجبة التي سناكلها . وكانت ليلة لا تنسى .

ومع ذلك ، فإن تمنعي في نقل (مئة عام من العزلة) ، او اي كتاب آخر من كتبي المنشورة الى السينما ، غير مرتبط بشذوذات المنتجين ، وانما لرغبتي في ان يكون تواصلي مع قرائي مباشراً ، من خلال الحروف التي اكتبها لهم ، بحيث يتخيلون الشخصيات كما يشاؤون ، وليس من خلال وجه ممثل مستعار على الشاشة ، وانطوني كوين ، رغم كل شيء ، ورغم المليون دولار التي يملكها ، لم يكن بالنسبة لي ولا بالنسبة لقرائي هو الكولونيل اورليانو بويندیا . وما عدا ذلك ، فقد رأيت افلاماً جيدة كثيرة ماخوذة عن روايات سيئة، لكنني لم اشاهد ابداً فيلماً واحداً جيداً ماخوذا عن رواية جيدة .

منذ اربع سنوات ، نقل الى باريس جسد الفرعون المصري المحنط رمسيس الثاني ، لاخضاعه لفحص طبي يحدد طبيعة طفيليات انتشرت فيه ، وكانت تهدد بإتلافه ، وكيفية معالجتها . ولان الجثة كانت جثة ملك بلاد تربطها بفرنسا علاقات طيبة ، فقد قام الرئيس في ذلك الحين ، فاليري جيسكار ديستان ، باستقبالها في المطار ، وسط اجراءات التشريف العسكرية . انما لم تكن هذه هي المسالة الاكثر صعوبة في فحص الجسد ، بل كانت هناك مسالة اخرى لا حل لها : فاحشاء الجثة كانت مملوءة بنوع من النشارة المصنوعة من مواد نباتية متنوعة ، ومن بينها ، اوراق تبغ مفرومة .

بدا ذلك الاكتشاف وكانه هذيان تاريخي . وفعلاً ، فقد مات رمسيس الثاني سنة ١٢٣٥ قبل المسيح . هذا يعني ، منذ ٣٠٠٠ سنة . والحقيقة التي يتفق الجميع عليها هي ان التبغ قد اكتشف على يد كريستوف كولومبوس ، الذي حمله الى اوروبا بعد اكتشافه اميركا . وكون فرعون قديم يحمله في احشائه ، دفع الى التفكير باحتمال ان يكون المصريون قد عرفوا التبغ ، انما ليس لتدخينه ، بل لاستخدامات طبية . وبكلمة ادق ، لتحنيط فراعنتهم الذين كانوا يعتقدون انهم سيبقون احياء طالما بقيت اجسادهم محفوظة . هذه المعلومة المذهلة التي لا اذكر اني قرأتها في الصحف ، وجدتها في معجم مثير

للفضول ومسلٍ في الوقت ذاته ، اشتريته منذ وقت قريب . اسمه منذ متى ؟، وهو عبارة عن مسرد لاصل ومنشا ثمانمئة شيء وعادة من اشياء الحياة اليومية وعاداتها ، كتبه الفرنسي بيير جيرما . لقد سمعت في احدى المرات ان الدوس هوكسلي قد قرأ ، صفحة صفحة ، نحو ثلاثين مجلداً تؤلف الانسيكلوبيديا البريطانية ، ولقد حلمت على امتداد سنوات وسنوات في تكرار تلك المأثرة المنهكة والغنية ، لكنني توصلت الآن الى حل وسط منحني العزاء : فقد قرأت في ليلة واحدة ذلك المعجم عن الحياة اليومية بالتوتر والمتعة اللذين تقرأ بهما رواية غامضة .

حين كنت في المدرسة الابتدائية ، كان يلفت انتباهي ان المعلمين كانوا ينسبون الى الصينيين اشد الاشياء خيالية ، اضافة الى البارود والبوصلة . وقد تذكرت ذلك لان العلماء الذين درسوا مومياء رمسيس الثاني رأوا انه ربما يكون التبغ قد وصل الى مصر من الصين ، وانه قد يكون انتقل من هناك الى قارتنا الاميركية . ويقول معجم الاصول بالمقابل ، ان الفيزيائي العربي ابن الهيثم قد تحدث عن عدسات تصويب عيوب البصر سنة ٩٩٠ ، ولكن هذه العدسات لم تصنع للنظارات حتى سنة ١٢٨٥ على يد الزَجّاجين الايطاليين . ومع ذلك ، وربما بسبب معلومات مشوهة لقنني اياها معلمو مدرستي الابتدائية ، كنت اعتقد قانعاً بان النظارات هي من ابتكار الصينين ايضاً . وليس في متناول يدي الآن كتاب (عجائب الدنيا) لماركو بولو ، لكنني اظن انه هو الذي قال ذلك، بعد رحلته التي استمرت عشرين عاماً في الشرق الاقصى ، وانتهت سنة ١٢٩٢.

(الولادة الأولى دون ألم)

اكثر المعلومات اثارة للفضول هي تلك المتعلقة بتطور العلوم ، والطب

منها على وجه الخصوص . من المفيد ان نعرف ان جونون ، زوجة جوبيتر كانت وهي في اولمب ، بطلة اول ولادة دون الم ، وذلك بفضل المزايا المخدرة الموجودة في الخس . ومن المناسب كذلك ان نتذكر ثانية ان عملية الولادة القيصرية لم تدعَ بهذا الاسم نسبة الى يوليوس قيصر ، كما قيل لنا مراراً وتكراراً دون الاستناد الى اي اساس ، وانها كانت شائعة في الواقع قبل ازمنة لا ترقى اليها الذاكرة ، وكانت تجرى للنساء اللواتي كن يمتن وهن على وشك الولادة ، فيتم بذلك انقاذ حياة الوليد . اما اول عملية قيصرية لامرأة حية ، فقد اجراها عام ١٥٠٠ متخصص في خصي الخنازير من شيغرهاسن ، باقليم تورغوفيا في سويسرا ، بعد ان اعلن الاطباء والقابلات في البلدة ان ولادة زوجته مستحيلة . فقام الرجل ، وكان يدعى جاكس نوفير بفتح بطنها بسكين خصي الخنازير ، ثم خاطه بخيط عادي ، دون استخدام اي نوع من التخدير ، وقد عاشت الام وابنها لسنوات طويلة .

ويروي ذلك المعجم المرح ، ان نقابة الطب في لندن قد دفعت ، في العام ١٦٦٧ ، عشرين شلناً لمجنون مقابل موافقته على ان يجروا له عملية نقل دم خروف . ولم تكن تلك هي المحاولة الاولى من هذا النوع ، لكن عمليات نقل الدم كانت قد حرمت قبل ذلك بسنوات قليلة في انجلترا ، لان قلة هم الذين كانوا يخرجون منها سالمين . ومع ذلك ، فإن المجنون لم يتمثل دم الخروف على احسن وجه وحسب ، بل ان شاهداً من ذلك العصر يقول : ان عملية نقل الدم قد حولته الى رجل مختلف تماماً .

(موانع الحمل واشياء أخرى)

أحد أهم مقالات المعجم هو ذاك الذي يتناول وسائل منع الحمل ويذكر ان ثمة وصفة عُثر عليها على ورقة بردي مصرية ، هي عبارة عن مرهم يصنع من براز التمساح والصمغ العربي ، وان فعاليته كانت مؤكدة إذا ما وضع جيداً

في عمق الرحم . وقد ذكرتني تلك الوسيلة باكثر الطرق التي وجدتها بدائية ، حين كان علي ان اضعها تحت تصرف احدى شخصياتي الروائية ، وكانت عبارة عن لبخة من الخردل ، تدخل ابخرتها في المهبل قبيل ممارسة الحب ، ويبدو ان هذه الوسيلة كانت شائعة في اميركا اللاتينية على نطاق أوسع مما يخطر لأحدنا ، وخصوصاً في أزمنة حروب الكولونيل اوريليانو بويندنيا الاهلية ، وذلك بعد أربعة قرون من توصل عالم التشريح الايطالي فالوبيو الى ابتكار مانع الحمل المتقن المصنوع من احشاء الخراف .

وباختصار ، فإن معجم الاصول يخبرنا بتفصيل وظرف عمن اخترع آلة الغسيل ، واين بني اول فنار ، وفي اي بحر ابحرت اول ناقلة نفط ومنذ متى بدأ استخدام زيت البطم ، ومن هو اول رجل هبط بالمظلة ، واشياء اخرى كثيرة لا يكاد يتسع لها ترتيبه الابجدي . والكتّاب يحبون ان يعرفوا ، على سبيل المثال ، ان احدى الآلات الكاتبة التي صنعت في القرن الماضي ، كانت تدعى « بيانو الكتابة » ، وان زبونها المتحمس كان الكاتب مارك توين . وسيتساءلون دون شك – لأن المعجم لا يذكر ذلك – : ماذا جرى للآلة الكاتبة الصينية ، التي قيل منذ سنوات طويلة ان مخترعها هو الكاتب المتامرك لين يوتانغ . وسيعجبهم ان يعرفوا ان مشد الخصر (الكورسيه) المصنوع من الاسلاك الفولاذية كان شائعاً جداً في القرن التاسع عشر ، بالرغم من انه كان غير مريح وخطراً ، ويسبب الموت في بعض الحالات . ولكن لا بد من القول – كما يشير المعجم – ان نساء الولايات المتحدة لم يتوقفن عن استخدامه بسبب خطورته ، وانما استجابة لنداء وجهته الحكومة سنة ١٩١٧ ، دعت فيه النساء كي يساهمن باسياخهن المعدنية في المجهود الوطني للحرب العالمية الاولى . وقد استعيد بتلك الطريقة ٢٨٠٠٠ طناً من الفولاذ ، كانت كافية لبناء سفينتين مدرعتين من مدرعات ذلك العصر .

كثيراً ما قيل إن أعظم الكتّاب ، في السنوات الثمانين الماضية ، قد
وا دون ان يحصلوا على جائزة نوبل . إن في هذا مبالغة ، لكنها ليست
كبيرة . فليو تولستوي ، صاحب رواية (الحرب والسلام) ، التي هي دون شك،
م عمل في تاريخ جنسها الادبي ، قد مات سنة ١٩١٠ ، عن عمر نوبلي جداً
٨٢ سنة ، وفي وقت كانت الجائزة قد منحت فيه عشر مرات . وكان قد
ضى على صدور رائعته ٤٥ سنة من المجد ، وكانت قد ترجمت الى لغات عديدة
يد طبعها مرات ومرات في جميع انحاء العالم ، ولم يكن هنالك من ناقد يشك
انها ستبقى خالدة الى الابد .

وبالمقابل ، فإن الكاتب الوحيد الذي بقي حياً في الذاكرة ، بين الكتّاب
شرة الاوائل الذين نالوا جائزة نوبل ، حين كان تولستوي ما يزال على قيد
ياة ، هو الانكليزي روديانغ كيبلنغ . اما اول من حصل عليها فكان الفرنسي
لي برودم ، وكان واسع الشهرة في عصره ، لكن كتبه لم تعد موجودة الآن
في بعض المكتبات المتخصصة جداً . بل واكثر من ذلك ، فلو ان احدنا بحث
اسمه في معجم فرنسي ، فسيجد تعريفاً موجزاً يبدو وكأنه لعبة خبيثة من
ب القدر : « نموذج حديث للعجز القانع والابتذال المتقن » . كاتب آخر من
شرة الاوائل المتوجين بالغار ، هو البولوني هنريك سنكويش ، الذي تسرب

خلسة الى المجد ، بوضعه لبنة في البناء بروايته الخالدة كوفاديس . وكاتب آخر هو فريدريك ميسترال ، شاعر فروفنسي كتب بلغته الاصلية ، وكان له الشرف المحزن بتقاسم الجائزة مع واحد من اكثر الكتّاب المسرحيين مدعاة للرثاء ، ممن انجبتهم اسبانيا الأم : ألا وهو خوسيه اتشيغاراي ، عالم الرياضيات اللامع ، ليحفظه الرب الى جواره في مملكته المقدسة .

خلال الستة عشر عاماً التالية ، مات دون الحصول على الجائزة ، خمسة أخرون من اعظم الكتاب في كل الازمنة : هنري جيمس ، سنة ١٩١٦ ؛ ومارسيل بروست ، سنة ١٩٢٢ ؛ وفرانز كافكا ، بسنة ١٩٢٤؛ وجوزيف كونراد في السنة نفسها ؛ ورايز ماريا ريلكة ، سنة ١٩٢٦ . وخلال هذه السنوات كان يحتل مقعد العباقرة ايضاً كل من ج.ك . تشسترتون ، الذي توفي عام ١٩٣٦ دون ان يحصل على جائزته ، وجيمس جويس ، الذي توفي عام ١٩٤١ ، حين كانت (اوليسيس) قد بدلت مسار الرواية في العالم ، بعد تسعة عشر عاماً من صدورها .

وبالمقابل ، فإنه لم يخلد الى الآن سوى ذكر اربعة كتّاب ، من بين الاربعة عشر كاتباً الذين حصلوا على الجائزة في تلك الفترة السيئة ، وهؤلاء الاربعة هم : الانكليزي موريس ميترلنك ، والفرنسيان رومان رولان واناطول فرانس ، والايرلندي جورج برنارد شو . اما الهندي رابندرانات طاغور ، الذي يدين له بدموع كثيرة من حلوى السكاكر ، فقد جرفته رياح اللعنة العادلة وكنوت هامسون ، البلجيكي الفائز بالجائزة لعام ١٩٢٠ حين كان في ذروة المجد فقد لقي المصير نفسه ، رغم انه اقل جدارة به . بعد ذلك بسنتين ، وقعت الاكاديمية السويدية في خطيئتها القاتلة الثانية مع اللغة القشتالية ، حين منحت الجائزة للاسباني خاثينتو بينابينتي ، ليحفظه الرب اقرب ما يمكن من خوسيه

اتشيغاراي الى ابد الأبدين . وبشكل او بآخر ، لم يكن اي من الفائزين في تلك الفترة يستحق الجائزة مثل اولئك الذين ماتوا وهم يستحقونها .

يمكن ان يكون اغفال كافكا وبروست مفهوماً . ففي عام ١٩١٧ ، حين تقاسم جائزة نوبل شخصان مرموقان ومعروفان في بيتهما - كارل غيلروب وهنريك برونتوبيدان - ، كان على فرانز كافكا ان يتقاعد من شركة التامين التي كان يعمل فيها وقد مات بعد سبع سنوات بداء السل في أحد مستشفيات فيينا . وكانت روايته الرائعة : (التحول) ، قد نشرت قبل ذلك بزمن قصير في مجلة المانية . وكما هو معروف بشكل واسع ، فإن صديقه ماكس برود لم يخالف مشيئة الكاتب المتوفى الا في عام ١٩٢٦ ، حين نشر روايتين عبقريتين : (القلعة، والمحاكمة) . وفي ذلك العام ، منحت جائزة نوبل للايطالية غرازيا ديليدا ، التي احتاجت للبقاء على قيد الحياة مدة عشر سنوات بعد حصولها على الجائزة ، لكي تقتنع بالأمر .

(عدالة موضع شك)

مات مارسيل بروست ايضاً دون ان يرى مجده . ففي عام ١٩١٦ ، رفض عدد من الناشرين الجزء الاول من عمله الروائي البارز ، وكان بين اولئك الناشرين « غاليمار » ، الذي رفض نشر العمل بناء على قرار مستشاره الادبي اندريه جيد ، الذي كان - للحقيقة - الفائز المناسب بجائزة نوبل لعام ١٩٤٧ . وقد تم نشر ذلك الجزء فيما بعد على نفقة المؤلف نفسه . وفي عام ١٩١٩ نشر المجلد الثاني - (في ظلال ربيع الفتيات) - الذي حقق له شهرة سريعة ، وأتاح له الحصول على اكبر امتياز ادبي فرنسي : جائزة كونكور . ولكن لا بد لنا من ان نكون عادلين : فقوى التنبؤ وحدها هي التي كانت قادرة على استشفاف

العظمة التي سيبلغها نصب عصرنا الادبي : (البحث عن الزمن المفقود) ، والتي لم تنشر كاملة الا بعد موت مؤلفها .

لقد قال لي غراهام غرين يوماً ان اشد التاثيرات في كتاباته هي التي جاءته من هنري جيمس وجوزيف كونراد ، وقد اعتبرا كلاهما من كلاسيكيي اللغة الانكليزية مذ كانا على قيد الحياة . وفي السنة التي توفي فيها هنري جيمس ، كانت جائزة نوبل من نصيب السويدي فيرنر فون هيدنستام . وفي السنة التي توفي فيها كونراد، ذهبت الجائزة الى كاتب آخر مولود في بولونيا - مثله - هو فلاديسلاف ريمون . ولم يكن اي منهما عبقرية خفية دون ريب ، مثلما هو شان اليوناني جيورجوس سيفيرس ، الفائز بالجائزة عام ١٩٦٣ ، والامريكي اسحق ب . سينغر ، الفائز عام ١٩٧٨ .

فعلى العكس من كافكا وبروست ، كان كونراد قد عاش أمجاده كلها ، فقد نشر ست عشرة رواية وعدداً كبيراً من القصص القصيرة ، كان معظمها باهراً ؛ وكان معترفاً به كاحد اعظم كتّاب عصره ، وقد اباح لنفسه ترف رفض لقب (فارس الامبراطورية البريطانية) . وعندما اكمل السابعة والستين ، كان سنه قد اصبح مناسباً للموت باطمئنان .

لقد حصلت ماري كوري على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٠٣ ، مناصفة مع زوجها بيير ، ثم نالت وحدها فيما بعد - عام ١٩١١ - الجائزة في الكيمياء . كما تقاسم الاميركي جون بارديم الجائزة في الفيزياء عام ١٩٥٦ ، لاكتشافه تاثيرات الترانزيستور ، ثم تقاسمها ثانية عام ١٩٧٢ لدوره في تطوير نظرية الموصلية العليا . واخيراً ، فإن البروفسور لينوس كارل باولينغ ، الحائز على الجائزة في الكيمياء عام ١٩٤٥ ، كرر حيازتها في مجال السلام سنة ١٩٦٢ . اما اينشتاين ، فقد استحق جائزة الفيزياء مرتين ، ولكنهم اعطوه

اياها مرة واحدة فقط . فالمكلفون في الفصل في جدارته اتخذوا احتياطاتهم :فلخشيتهم من ان تكون نظرية النسبية زائفة ، منحوه الجائزة لاكتشافه قانون الظواهر الفوتو الكترونية .

ان الاكاديمية السويدية لا ترتكب مثل ذلك الطيش . بل على العكس : فإحدى خصائصها التي لا بد من الاقرار بها هي طبيعتها المتطرفة في صرامتها . فالاكاديمية لا تخاف من ارتكاب الاخطاء - وهي تخطئ كثيراً بالطبع - ، وتمنح الجائزة مرة واحدة فقط ، عن عمل في حياة المرء كلها . ويبدو انها ترى ان من هو متفوق في العلم لا يمكن له ان يكون متفوقا كذلك في الآداب . والتضارب الوحيد الذي اقدمت عليه - وربما لن تعود الى تكراره - هو تخصيص جائزة بعد وفاة صاحبها ، في عام ١٩٣١ ، للشاعر الاكثر شعبية في السويد ، اكسيل كارلفيلدت ، الذي كان قد توفي قبل ستة اشهر من ذلك . والامر الاكثر غرابة هو ان كارلفيلدت كان قد رفض الجائزة عام ١٩١٨ ، ونتيجة لذلك اعلن عن حجب الجائزة في ذلك العام . وما لا يستطيع احدنا تفسيره هو لماذا لم يتخذ الاجراء ذاته حين رفض بوريس باسترناك الجائزة عام ١٩٥٨ ، وجان بول سارتر عام ١٩٦٤ ، وانما استمرت الاكاديمية في اعتبارهما حائزين على الجائزة رغم أنفيهما .

هناك على اية حال ، خرافة شائعة جداً بين الكتّاب تزعم ان جائزة نوبل ليست الا تكريما ياتي عند الوفاة : فمن اصل ٧٥ كاتبا فازوا بالجائزة ، لا يوجد سوى اثني عشر منهم على قيد الحياة . واعرف عددا من كبار كتّاب ايامنا لا يشعرون بمثل لهفة بورخيس لنيل الجائزة ، وإنما على العكس من ذلك يشعرون بخوف ميتافيزيقي منها ، وذلك بسبب انتشار الاعتقاد القائل انه لا احد يعيش اكثر من سبع سنوات بعد نيل جائزة نوبل للآداب . الاحصاءات لا

تؤكد ذلك ، ولكنها لا تنفيه ايضاً : فإثنان وعشرون كاتباً توفوا في غضون تلك المدة .

واسوأ مثال على ذلك قدمه الفائزون الاوائل . فسولي برودهوم مات بعد ست سنوات من نيله الجائزة . والالماني تيودور مومسين ، توفي بعد سنة واحدة . والنرويجي بجورنستجيرن بجورنسون توفي بعد سبع سنوات . اما الرقم القياسي الحالي فيحتفظ به الشاعر الانكليزي الكبير جون غالسورثي ، الذي تلقى الجائزة عام ١٩٣٢ وتوفي بعد ستين يوماً من ذلك .

اما من لا يؤمنون بالخرافات ، فلديهم بالطبع تفسير منطقي للأمر : فمتوسط العمر عند نيل الجائزة - حسب قولهم - هو ٦٤ سنة ، وبالتالي فإن موت الفائزين خلال السنوات السبع التالية هو احتمال وارد احصائيا . ويبرهنون على ذلك بسلبية الامر بالنسبة للفائزين الاصغر سناً : فروديارد كيبلنغ مثلا ، وهو اصغر الفائزين سنا ، حصل على الجائزة وهو في الثانية والاربعين من عمره ، وتوفي في السادسة والسبعين ؛ وحصل سنكلير لويس على الجائزة وهو في الخامسة والاربعين ، وتوفي عند بلوغه السادسة والستين . اما بيرل س. باك ، المنسية تماما ، فقد فازت بالجائزة وهي في السادسة والاربعين وتوفيت في الحادية والثمانين . ويوجين اونيل ، الذي نال الجائزة وهو في الثامنة والاربعين ، توفي في الثالثة والسبعين . والاستثناء المحزن الوحيد هو البير كامي ، الذي حصل على الجائزة وهو في الرابعة والاربعين ، في اوج مجده ونبوغه ، وتوفي بعد عامين من ذلك ، في حادث السيارة التي كان يقودها قدر ربما لم يكن قدره .

ومع ذلك ، فإن الحياة تجد على الدوام طريقة ما لتكون غير منطقية . ولاثبات ذلك ، لدينا قائمة الفائزين الثلاثة الاكبر سناً : الالماني باول هيس

Paul Heyse ، الذي نال الجائزة وهو في الثمانين ؛ وبرتراند راسل ، في الثامنة والسبعين ، وونستون تشرشل ، في التاسعة والسبعين . وهيس في هذه الحالة هو الاستثناء المعكوس الذي توفي بعد اربع سنوات من نيله الجائزة . لكن تشرشل عاش احدى عشرة سنة بعد الجائزة ، وكان يدخن علبة سيجار ويشرب زجاجتي كونياك يومياً . اما برتراند راسل ، فقد حطم جميع الارقام العالمية : توفي بعد عشرين سنة من نيل الجائزة ، وكان قد بلغ الثامنة والتسعين من عمره .

لم يبد جان بول سارتر ، مطلقاً ، ما يشير الى ايمانه باسرار هذه الارقام ، اللهم الا دليلا واحدا ؛ فحين ساله احد الصحفيين عما اذا كان نادماً لرفضه جائزة نوبل ، اجاب : « على العكس تماماً ، فقد انقذ ذلك حياتي » . لكن المثير للقلق هو انه توفي بعد ستة شهور من قوله ذاك .

هل تعلم من هي ميرسيه رودوريدا ؟

في يوم ثلاثاء من عام ١٩٨٣ ، سالت عن ميرسيه رودوريدا في مكتبة من مكتبات برشلونة ، فقالوا لي انها قد توفيت الشهر الماضي . لقد سبب لي ذلك الخبر حزناً عظيماً ، اولاً : للتقدير العادل جداً الذي اكنه لكتبها ، وثانياً : للجحود الكامن في ان خبر موتها لم ينشر خارج اسبانيا بالاتساع والتكريم الواجبين . ويبدو ان عددا قليلاً من الناس ، خارج كتالونيا ، يعرفون من هي هذه المرأة اللامرئية ، التي كانت تكتب ، بلغة كتلانية باهرة ، روايات مشرقة ومتينة لا وجود لكثير مثلها في الآداب المعاصرة . احدى تلك الروايات -(ساحة الديامنتي) - هي في رأيي ، اجمل رواية نشرت في اسبانيا بعد الحرب الاهلية.

السبب في ان قلة يعرفونها ، حتى في اسبانيا بالذات ، لا يمكن عزوه الى انها كتبت بلغة محدودة الانتشار ، ولا لان مآسيها البشرية تدور في ركن شديدالخصوصية من مدينة برشلونة ، اذ ان كتبها قد ترجمت الى اكثر من عشر لغات . وكانت في جميع تلك اللغات موضع تعليقات نقدية اكثر حرارة مما نالته في بلادها « إنه واحد من تلك الكتب ذات المستوى الكوني التي كتبها الحب» ، ذلك ما قاله في حينه الناقد الفرنسي ميشيل كورنوت ، مشيراً الى رواية (ساحة الديامنتي) . وكتبت ديانا اثيل حول الترجمة الانكليزية : « انها

افضل رواية نشرت في اسبانيا منذ سنوات طويلة » . وكتب واحد من نقاد البوبليشير ويكلي Publisher Weekly ، في الولايات المتحدة ، انها رواية غريبة ورائعة . ومع ذلك ، وفي احدى المناسبات الكثيرة ، اجري استفتاء منذ بضع سنوات بين الكتاب الاسبان المعاصرين ، للوصول الى افضل عشرة كتب ، بنظرهم ، صدرت في اسبانيا بعد الحرب الاهلية ، ولا اذكر ان واحدا من الكتاب اتى على ذكر (ساحة الديامنتي) . بينما ذكر كثيرون منهم ، وهم محقون تماماً ، كتاب (كور المتمرد) ، لارتورو باريا . لكن المثير للفضول هو ان هذا الكتاب ، الذي نشرت مجلداته الاربعة المحشوة حشواً ، في نهاية الحقبة الرابعة من هذا القرن ، في بوينس ايرس . لم يكن قد نشر – ولم ينشر حتى الان بعد – في اسبانيا ، بينما كانت طبعات (ساحة الديامنتي) قد وصلت الى ست وعشرين طبعة باللغة الكتالانية . اما انا ، فقد قرأت الرواية باللغة القشتالية في تلك الايام ، وكان انبهاري يوشك ان يقارن بذاك الذي سببته لي القراءة الاولى لرواية (بيدرو بارامو) ، لخوان رولفو . بالرغم من انه لا وجود لما يجمع بين الكتابين ، سوى شفافية جمالهما .

ولست ادري كم من المرات عدت لقراءتها منذ ذلك الحين ، بينها عدة مرات باللغة الكتالانية ، بمجهود يوضح ولعي الشديد بها .

ان حياة ميرسيه رودوريدا الخاصة ، هي واحد من اكثر الاسرار غموضاً ، في مدينة برشلونة بالغة الغموض . فانا لا اعرف احداً كان يعرفها جيداً ، ويستطيع ان يقول لي كيف كانت بشكل مؤكد ، ولا تتيح كتبها سوى لمس حساسية مفرطة ومحبة نحو اناسها وجيرانها ، وربما كان ذلك هو السبب في ايصال روايتها الى العالمية . يعرف عنها انها امضت سنوات الحرب الاهلية في بيت الاسرة في سان خيرفاسيو ، ويبدو جليا في كتبها انها كانت روحا من

هذا العصر . ويعرف عنها كذلك انها قد ذهبت لتعيش في جنيف بعد ذلك ، وكتبت هناك جذوة اشواقها وحنينها . « عندما بدأت الكتابة كنت لا اكاد اذكر كيف هي ساحة الديامنتي » ، هذا ما كتبته في احدى المقدمات ، التي تعتبر دليلا نموذجيا على وعيها كروائية . ويمكن لاي شخص ، ما لم يكن كاتبا آخر ان يفاجأ بان الكاتبة قد توصلت الى اعادة خلق ، على ذلك الجانب من الدقة والالهام ، لاماكنها واناسها ، انطلاقا من معيشة بعيدة ، وشبه ضائعة في ضباب الطفولة . فقد كتبت في مقدمة احدى الطبعات الكتلانية تقول : « اذكر فقط انني ذهبت في احدى المرات ، وكان عمري ثلاثة عشر او اربعة عشر عاماً ، لاتمشى برفقة ابي في الشوارع يوم الاحتفال باحد الفصح . كانوا قد نصبوا خيمة في ساحة الديامنتي ، مثلما هو الحال في ساحات اخرى بالطبع . لكن الخيمة التي ساذكرها دائما هي تلك التي كانت في (ساحة الديامنتي) . فلدى مروري امام صندوق الموسيقى هناك ، تملكتني رغبة قانطة في الرقص ، وكان ابواي يمنعانني من عمل ذلك ، فرحت امشي حزينة في الشوارع المزدانة» . وترى ميرسيه رودوريدا انها بتاثير ذلك الاحباط ، بدأت روايتها بعد سنوات طويلة ، في جنيف ، بتلك الحفلة الشعبية الصاخبة .

وعموماً ، فان تلك اللهفة للرقص ، التي كان ابواها يقمعانها دوما لانها غير لائقة بالنسبة لفتاة محترمة ، اعتبرتها الكاتبة نفسها التناقض الاصلي الذي دفعها للكتابة .

قليلون هم الكتاب الذين توصلوا الى تحديدات على مثل تلك الدرجة من الصواب والجدوى ، حول سيرورة الابداع الادبي في الوعي الباطن ، مثلما فعلت ميرسيه رودوريدا في مقدمات كتبها . وقد كتبت : « الرواية عمل سحري » . وعند حديثها عن (المرأة المهشمة) – اطول رواياتها – حققت كشفا آخر يكاد

يكون خيمانيا : « ايلادي فاريولس ، الذي كان ميتا ومسجى في مكتبة بيت اقطاعي ، حل لي مشكلة الفصل الاول بطريقة غير منتظرة » . وتقول في مكان آخر : « ان للاشياء اهمية كبيرة في السرد . وقد كانت لها تلك الاهمية منذ الازل ، وقبل زمن طويل من كتابة روب جرييه لكتاب البصاص (Le voy-eur)» . لقد عرفت هذه التصريحات بعد زمن طويل من الابهار الذي سببته لي كاتبتها بتلك الحسية التي تجعلنا نرى بها الاشياء في هواء روايتها ، وبعد زمن طويل من انبهاري بالضوء الجديد الذي تضئ به كلماتها الاشياء . فالكاتب الذي ما زال يعرف كيف تسمى الاشياء ، يكون قد انقذ نصف روحه ، وميرسيه رودوريدا كانت تعرف ذلك بمتعة في لغتها الام . اما نحن جميع كتاب اللغة القشتالية ، فلسنا نعرف ذلك ، ويبدو الامر واضحا لدى البعض اكثر مما يخيل الينا بكثير .

اظن – ما لم تخني الذاكرة – ان ميرسيه رودوريدا هي الكاتبة الوحيدة (او الكاتب الوحيد) التي زرتها دون معرفة مسبقة ، يدفعني الى ذلك تقدير لا يقاوم . علمت من ناشرنا المشترك انها موجودة في برشلونة لبضعة ايام ، واستقبلتني في شقة مؤقتة ، مؤثثة بطريقة متواضعة جداً ، وذات نافذة وحيدة تطل على حديقة مونتيرولاس الغسقية . وقد اذهلني طبعها الساهي ، والذي وجدته مبينا فيما بعد في احدى مقدماتها : « ربما كان اكثر وجوه شخصيتي المتعددة بروزا هو نوع من البراءة التي تجعلني اشعر انني على ما يرام في العالم الذي قدر لي ان اعيش فيه » . كنت اعرف في ذلك الحين انها ، اضافة الى ميولها الادبية ، تملك ميلا آخر موازيا ، ومتسلطاً كالآخر ، وهو زراعة الزهور . تحدثنا في هذا الامر ، الذي اعتبره شكلا آخر من اشكال الكتابة ، وبين زهور وزهور ، كنت احاول ان احدثها عن كتبها ، وكانت تحاول ان تحدثني

عن كتبي . وقد لفت انتباهي انها كانت تهتم اكثر ما تهتم من بين كل ما كتبته ، بديك الكولونيل الذي ليس لديه من يكاتبه ، وانتبهت هي الى انني معجب جدا بيانصيب الكافتيريا في (ساحة الديامنتي) . ما زالت لدي اليوم ذكرى محددة وسط ضباب ذلك اللقاء الغريب ، وهي دون شك ليست من الذكريات التي حملتها معها الى القبر ، فقد كانت تلك هي المرة الاولى التي تحدثت فيها الى مبدع ادبي كان نسخة حية من شخصياته . ولم اعرف مطلقا السبب الذي جعلها تقول لي وهي تودعني عند المصعد : « حضرتك تتمتع بميل شديد الى الفكاهة» . ولم اعد اعرف شيئاً عن اخبارها منذ ذلك الحين ، الى ان علمت مصادفة ، وفي ساعة شؤم ، انه قد وقع لها الحدث الوحيد القادر على منعها من مواصلة الكتابة .

مقابلة صحفية ؟
لا ، شكراً

اثناء احدى المقابلات الصحفية ، وجه الي الصحفي السؤال الازلي : «ما هو منهجك في العمل ؟ » . استغرقت متاملاً ، ابحث عن اجابة جديدة الى ان قال الصحفي انه اذا كان السؤال يبدو لي صعبا فيمكنه استبداله بسؤال آخر . فقلت : « بالعكس ، انه سؤال سهل ، وقد اجبت عليه مرات ومرات ، لذلك فإني ابحث عن اجابة مختلفة » . تضايق مقابلي لانه لم يستطع ان يفهم كيف اشرح منهجي في العمل بشكل مختلف في كل مناسبة . لكن الامر كذلك بالفعل . فعندما يتوجب على المرء ان يقدم مقابلة كل شهر ، خلال اثنتي عشرة سنة ، فإنه ينتهي الى ان ينمي في نفسه طريقة اخرى للتخيل ، كي لا تكون جميع تلك المقابلات ، عبارة عن مقابلة واحدة مكرورة .

الحقيقة ان المقابلة ، كجنس في الكتابة ، قد غادرت منذ زمن بعيد حدود الصحافة الصارمة ، لتدخل برخصة قرصنة الى غابات الخيال الروائي . لكن السيء في الامر هو ان معظم صحفيي المقابلات يجهلون ذلك ، وكثيرين من الساذجين الذين تجرى المقابلات معهم ما زالوا لا يعلمون به ايضا . ثم ان هؤلاء واولئك لم يتعلموا بعد ان المقابلات هي مثل الحب : لا بد لتحقيقها من شخصين ، وانها لا تكون جيدة الا اذا كان كل من الشخصين يحب الآخر . والا

فإن النتيجة ستكون مجموعة من الاسئلة والاجابات ، التي يمكن لها ان تنتج ابنا في اسوأ الحالات ، انما لا سبيل الى الخروج منها بذكرى طيبة على الاطلاق .

يكون المدخل للمقابلة هو ذاته على الدوام ، ويأتي عبر الهاتف بشكل شبه دائم . « لقد قرأت جميع المقابلات التي اجريت مع حضرتك ، وجميعها متشابهة » ، هكذا يقول صوت مهذب وواثق تمام الثقة من نفسه ، ثم يضيف : « ما اريد ان افعله هو شئ مختلف » . ولا جدوى من تذكيره بأن الجميع يقولون الكلام ذاته ، فضلا عن انني لا استطيع قول ذلك بأي شكل من الاشكال ، لاني اعتبر نفسي على الدوام ، وقبل كل شئ ، صحفيا ، وحين يطلب مني صحفي آخر مقابلة ، اجد نفسي في زقاق مسدود : فانا ضحية وشريك في الجريمة في الوقت ذاته . وهكذا فإنني انتهي دوما الى الرضوخ ، مبقيا على ذلك الخيط الانتحاري الذي لا خلاص منه ، والذي نحمله جميعاً في اعماقنا .

وفي اثنتين من كل ثلاث حالات ، تكون النتيجة هي نفسها : لا تأتي المقابلة مختلفة ، لان الاسئلة هي الاسئلة المعتادة . بما في ذلك السؤال الاخير : « هل تود ان توجه الى نفسك سؤالا لم يطرح عليك من قبل وترغب في الاجابة عنه ؟ » . وتكون الاجابة هي الاكثر كآبة : « لا يوجد اي سؤال ». ربما كان الصحفيون الذين يجرون المقابلات لا ينتبهون الى مقدار ما نتألم ، نحن المقابلين ، لفشلهم ، لانه ليس فشلهم وحدهم في الحقيقة ، وانما هو قبل كل شئ ، فشل لنا ، وابقى دوما ضحية الاحساس المرعب بانه في يوم الاحد القادم ، عندما يفتح القراء الجريدة ، سيصابون بخيبة الامل ، وربما بالغضب العادل ، فها هي ذي المقابلة المعتادة مع الكاتب المعتاد ، الذي صاروا يجدونه حتى في حسائهم ، فينتقلون وهم محقون تماما في ذلك الى صفحة التسالي

التي توفرها لهم العناية الالهية . وأمل الا يعود احد ، في يوم غير بعيد ، الى شراء الصحف التي تنشر مقابلات معي .

هناك صحفيو مقابلات من مختلف الدرجات ، لكنهم جميعهم يشتركون في امرين اثنين : فهم يظنون ان تلك المقابلة ستكون « خبطة » حياتهم ، ويكونون خائفين . وما لا يعرفونه – ومن المفيد ان يعرفوه – هو ان جميع المقابلين الذين لديهم احساس بالمسؤولية ، يكونون اكثر خوفا منهم . مثلما هو الحال في الحب طبعا . ولانهم يظنون انهم هم وحدهم الخائفين ، فإنهم يندفعون الى احد الطرفين النقيضين : فإما ان يصبحوا شديدي الملاطفة ، واما ان يصبحوا شديدي العدوانية . من هم من الفئة الاولى لا يفعلون في الواقع شيئا يستحق الذكر على الاطلاق . اما من هم من الفئة الثانية ، فلا يتوصلون الى ما هو اكثر من اثارة حفيظة من يقابلونه . « هذا شئ حسن » قال لي احد المختصين الجيدين بإجراء المقابلات الاذاعية ، واضاف : « اذا توصل الصحفي الى استثارة من يقابله ، فإنه يدفعه في النهاية الى الصراخ بالحقيقة وهو تحت تأثير الغضب » . هناك آخرون يستخدمون اسلوب معلمي المدارس السيئين ، بمحاولتهم دفع من يقابلونه الى الوقوع في تناقضات ، وجعله يقول ما لا يريد قوله ، بل ودفعه في اسوأ الحالات ، الى قول مالا يفكر فيه . وقد كان علي ان اقابل في بعض الاحيان مثل هؤلاء الصحفيين ، فكانت النتيجة مقابلة يرثى لها . ولكن علي ان اعترف ان مثل ذلك الاسلوب قد يؤدي في نوع آخر من المقابلات الى انفجار مبهر . وهو ما حدث منذ سنوات ، في مؤتمر صحفي حول موضوعات اقتصادية ، عقده رئيس فرنسا فاليري جيسكار ديستان . كا ذلك المؤتمر مشهدا متألقا ، حيث كان الصحفيون يوجهون اسئلتهم المتعمقة ، فيرد المسؤول عليها بدقة وذكاء وسعة اطلاع مذهلة

. وفجاة ، سال احد الصحفيين باشد ما يمكنه من التوقير : « هل تعرفون يا سيادة الرئيس ، كا هو ثمن تذكرة المترو ؟ » . وطبعا لم يكن السيد الرئيس يعرف ذلك .

(مقابلات حربية)

الاسم الذي بلغ الذروة في هذا النوع من المقابلات ، التي ربما يتوجب تسميتها : مقابلات حربية ، هو اسم اوريانا فالاشي . هناك صحفيون يظنون انهم يعرفونها – ولكنهم لا يحبونها دون شك – لديهم تحفظات حول اسلوبها . يقولون انها لا تزيف في الواقع كلمة واحدة مما يقوله من تقابله امام الميكروفون ، ولكنها بالمقابل ، ترتب حسب رغبتها تسلسل ما قيل لها ، وهي تبدل وتعدل ، بشكل خاص ، اسئلتها بالطريقة التي تناسبها . لست متاكدا من هذا ، وقد يكون من يقولونه لم يعرفوا به كذلك بانفسهم . لكنني اظن ، في نهاية المطاف ، ان هذا المنهج هو اقل اثارة للريبة من المنهج المستخدم حاليا في مجلتي « تايم » و « نيوز ويك » الامريكيتين ، اللتين تسجلان مقابلات مطولة تدوم لساعات ، ثم لا تستخدمان منها بعد ذلك سوى مادة لصفحة واحدة ، دون ان تتساءلا اذا ما كان الحذف لا يغير ، بطريقة ما ، من فحوى النص الاصلي . وعلى اية حال ، فإن نتيجة منهج اوريانا فلاشي تكون على الدوام كاشفة وأخاذة ، وشخصيات قليلة جدا في هذا العالم قاومت زهو منحها مقابلة صحفية، اما هي ، فلم يلن قلبها الا امام رجلين الامير راينر ، امير موناكو ، والمنسينور هيلديرا كاميرا . وقد اقر هنري كيسنجر نفسه ، في مذكراته ، بأن مقابلته مع اوريانا فلاشي كانت اكثر مقابلاته الصحفية كارثية على الاطلاق . ومن السهل فهم ذلك ، لانه لم يظهر في اية مقابلة اخرى مكشوفا من الداخل

والخارج ، وبكامل جسده ، مثلما ظهر في تلك المقابلة . ولم يكن بالامكان تحقيق ذلك ، بكل تاكيد ، الا بالامكانيات السحرية للراوية .

ان مقابلا جيدا ، يجب ان يكون برأيي ، قادرا على اجراء محادثة متدفقة مع من يقابله ، ثم عليه بعد ذلك ان يعيد انتاج جوهرها وفحواها ، منطلقا من بضع ملاحظات موجزة . لن تكون الحصيلة حرفية بالطبع ، لكنني اظنها ستكون اكثر امانة ، وستكون - بشكل خاص - اكثر انسانية ، مثلما كانت المقبلات على امتداد سنوات طويلة من الصحافة الجيدة ، قبل التوصل الى هذا الاختراع الشيطاني المسمى ميكروفون . اما الآن ، فإن احدنا يشعر بأن من يجرى معه المقابلة لا يستمع الى ما يقوله ، ولا يهمه ذلك ، لانه يظن ان ميكروفون آلة التسجيل يسمع كل شئ انه مخطىء : فالميكروفون لا يسمع خفقات القلب وهي اهم شيء في المقابلة . ولا يذهب بك الظن الى ان مثل تلك التعاسات تبهجني . بل على العكس : فبعد كل هذه السنوات من الاحباط ، ينتظر احدنا من اعماق روحه ان يأتيه اخيرا صحفي حياته الذي سيقابله مقابلة حقيقية . مثلما هو الحب تماما .

العودة من الطائرة الى البغلة ... يا للسعادة !

وهكذا اعددت حقائبي ، واسلمت روحي لنصف زجاجة من الويسكي وصعدت الى الكونكورد . كنت قد انتظرت نحو ساعتين في قاعة انتظار بمطار شارل ديغول ، في باريس ، الذي يبدو من جميع النواحي وكأنه محطة فضائية . ولم اتوقف خلال ذلك الوقت كله ولو للحظة واحدة ، عن تأمل - من خلال النوافذ الزجاجية البانورامية - ذلك الطائر الاهيف الرابض ، بجناحيه الضخمين الممدودين ، والتساؤل بين كل رشفة واخرى من الويسكي الخالص : لماذا كنت جبانا الى حد فقداني حتى شجاعة التخلي عن تلك المغامرة ؟ والى جانب الكونكورد ، كانت تمر طائرات من سلالات اخرى اكثر تواضعا ، لا يظهر من نوافذها احد يلوح بيده مودعا ، ولا يظهر احد يسكب دمعة حزن على الرصيف ، مثلما كان يحدث عند ابحار السفن في زمن اخر ، دون ان تترك لنا العزاء حتى في جؤارها الوداعي . كان قلبي ينقبض كلما انتبهت الى ان الطائرة الاكثر سرعة والابهظ تعرفة هي الاصغر حجما بين جميع الطائرات ، وان حجم نوافذها لا يكاد يصل الى حجم راحة اليد ، وان عرضها اقل من عرض اول الطائرات ذات المراوح التي اذهلت العالم في حينها . ان الدخول الى ذلك الصاروخ الاسرع مرتين من الصوت ، للوصول الى نيويورك في وقت اقل بثلاث ساعات فقط من الوقت الذي تحتاجه طائرة عادية ، ما هو الا

مجازفة شيخوخية . ومع ذلك ، فقد كنت هناك ، وسط رجال الاعمال عديمي الاحساس والمومسات الفاخرات المتالقات . دون ان تكون الحياة القاسية او الحياة اللينة قد غيرتا شيئا في اعماقي منذ تلك الظهيرة القائظة التي لا يذكر زمنها الا الله ، حين اصعدني جدي للمرة الاولى الى قطار اراكاتاكا . لقد كان الامر مشابها : فها انا الان محمول بين يدي الرعب ، وهو الجد الوحيد المتبقي لي بعد ان مات اجدادي الذين من لحم وعظم .

كان احد الاصدقاء الكولومبيين قد بين لي بجملة واحدة صاعقة ان الكونكورد هي « مثل طائرة دي - سي / ٣ ، ولكن خراء » . وليس عليّ ان اضيف او ان احذف حرفا واحدا من هذا التعريف . ان طولها اكبر بنحو اربع مرات من ذلك النوع من الطائرات ، اما ارتفاع السقف وضيق الممر الاوسط ، وحجم المقاعد فهو مثلما كان في تلك الطائرات البدائية التي كنا نجتاز بها غابات ونقفز جبالاً بسعادة الشباب اللامبالية .

اذن لم يكن سبب واحد يحمل على الخوف الان اكثر من ذلك الحين ، ما عدا الفرق الشاعري في ان ابقار الزمن الغابر كانت تتوقف عن الاكل لترى مرور الطائرات فوق المراعي ، اما الكونكورد فتبحر في سماء متوحدة ليست من سماوات هذا العالم . وباستثناء ذلك ، فإن كل شئ كان مماثلا : الجو الداخلي، حيث يمني احدنا نفسه بانه سيدخل مركبة فضائية ، ذات جماليات مختلفة عن جماليات الطائرات الاخرى البائدة : ولكنه يجد فيها جمالية طائرات المراوح الريفية التي كان المرء يقضي الليل فيها منتحبا من الوحدة . لقد قالت سيدة وهي راجعة من دورة المياه في الطائرة : « يمكنهم بالتعرفة التي يتقاضونها ان يعلقوا لوحة لبيكاسو في كل طائرة كونكورد على الاقل » . وقد فاجانتي للالهام الذي تمكنت ان تعبر به عن فكرة كنت احتاجها للتعبير عن غمي .

(ليلة ضائعة)

ان احدى اكبر الخسارات التي ألمتني وبلبلتني هي خسارة ليلة كاملة من حياتي في رحلة من لوس انجلوس الى طوكيو . لم اعد للعثور على تلك الليلة ابدا ، وكلما تذكرتها ساءلت نفسي ما عساي فعلت بها . وما ادراني ان تلك الليلة هي اسعد ليلة كانت مقدرة لي ، وانها ضاعت مني الى الابد لانني لم ابق هادئا في بيتي . الحقيقة اننا خرجنا من لوس انجلوس في يوم احد ، الساعة الثانية بعد الظهر ، ووصلنا الى طوكيو في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الاثنين ، بعد طيران استمر احدى عشر ة ساعة ، في نهار متواصل دون ليل . وكان اول شئ انتبهت اليه بعد ان حطت بنا الطائرة هو ان ليلة الاحد قد حذفت من حياتي ، ليس بساعاتها المعدودة ، وبسمائها ونجومها وحسب ، وانما بحلمها كذلك . وفي تلك الليلة ، في فندق طوكيو الضخم ، حيث يوقظون المرء بواسطة حاسبات الكترونية خفية تغرد مثل الطيور . لم اكن لاهتم بكل عجائب العلم تلك ، وانما كنت اشعر بنفسي تحت وطاة قلق النوم في ليلة ليست لي .

ان تشوش الاحساس بالزمن في الكونكورد هو اكثر مرارة لان المرء يخرج من باريس في الحادية عشرة صباحا ، ويصل الى نيويرك في الساعة الثامنة من صباح اليوم نفسه . وقد انتهينا ، نحن الاكثر تقدما في هذا النوع من اسرار العلم ، الى الرضى بالتشوش المتعارف عليه في الطائرات العادية ، حين يخرج احدنا في الساعة الثانية عشرة ظهرا من باريس ، ويصل في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم نفسه الى نيويورك ، بعد ان يكون قد طار سبع ساعات . اما ان نتناول الفطور في باريس ، ثم نعود الى تناوله في

نيويورك في اليوم والساعة نفسيهما ، فهو تعسف ترفضه الاسرار المرصودة للشعر .

ومع ذلك ، فإن هذه العجائب الفيزيائية التي نتقبلها جميعنا بشكل طبيعي - لكنني شخصيا لم اتمكن من فهمها ، رغم الشروح التي قدمها لي اصدقائي العلماء مستعينين بالارقام والرسوم - لا تعود شاعرية حين يعلم احدنا مقدار المجازفة التي يخضع نفسه لها لجعلها ممكنة . الحقيقة ان هذه الطائرة الاسرع من الصوت ، والتي هي بحد ذاتها ماثرة من ماثر الذكاء البشري ، تطير بسرعة ٢٢٠٠ كيلومترا في الساعة ، اي بسرعة تفوق ست مرات سرعة جدتها ذات المراوح . وللتوصل الى مثل هذه السرعة الدوارية ، لا بد لها من الارتفاع الى علو عشرين كيلو مترا ، حيث لا وجود لمزيد من الهواء ، وحيث درجة الحرارة الشتوية التي تصل الى ٦٦ درجة تحت الصفر ، وحيث الضغط الجوي اقل بعشرين مرة منه في البحر . ولكي يستمتع المرء بالخدمات الرائعة جدا ، ويتناول كل الشمبانيا التي يرغب في تناولها ، ويتلذذ بافضل اجبان العالم في ظروف كتلك الظروف ، لا بد لجو المركبة من ان يكون مماثلا لجو سطح البحر . اي ان يكون هناك فارق كبير جدا بين الضغط الخارجي والضغط الداخلي ، لان اي صدع بسيط غير مرئي في تلك القنبلة الاسرع من الصوت بمرتين ، سيكون كافيا لتحويل جميع المسافرين المئة الى غبار كوكبي مجيد . ولن تكون تلك هي الوسيلة الاكثر حداثة للموت وحسب ، بل ربما كانت كذلك الضمانة الوحيدة للموت جسدا وروحا الى الابد .

(انبعاث المنطاد المُسيّر)

لحسن الحظ انه كان في المجلة الوحيدة التي وجدتها في الطائرة مقال يبعث العزاء، حول احتمال بعث المنطاد المُسيّر قريباً ، والعودة الى استخدام

ديناصور عالم الطيران الضخم والوقود لأغراض تجارية ، بعد اربعين سنة من التهام النار للمنطاد المارد « هيندينبرغ » في نيوجرسي ، ومصرع ٣٦ شخصا فيه . لقد قام المنطاد (هيندينبرغ) بمئة واربع واربعين رحلة عبر الاطلسي ، ولم يكن فيه سوى عيب واحد وحيد كان السبب في كارثته : فقد كان منفوخا بالاكسجين ، وهو غاز قابل للاشتعال . اما المنطاد المُسيّر الجديد فسينفخ بغاز الهيليوم ، وهناك نموذج بريطاني منه سيدخل الخدمة ما بين لندن وباريس ، بحمولة تصل الى طنين اثنين ، وبسرعة ١١٥ كيلومترا في الساعة ولكن هناك نموذج اميركي أخر قادر على حمل سبعمئة مسافر عبر الاطلسي ، سيكون مزودا بغرف للنوم ، وممرات فاخرة ، وصالات حفلات ، واماكن للترفيه ، انما على ارتفاع لا يزيد على ثلاثين مترا عن سطح البحر . شئ اشبه بسفينة تطير بسرعة انسانية تعادل خمسمئة كيلومتر في الساعة ، دون تعجل او مفاجآت ، وذلك لكي تصبح متعة السفر حقيقية من جديد .

لقد كان الانتقال من البغلة الى الطائرة شاقا ومريرا ، لكننا الآن نمضي على احسن ما يرام في رحلة العودة . فمرة اخرى من الطائرة الي البغلة .

أيام العيد س

عدت هذا الاسبوع الى قراءة « ايام العيد س » ، رواية ثورنتون ويلدر الجميلة التي قرأتها لاول مرة منذ نحو خمسة وعشرين عاما في ترجمة متسرعة، ثم عدت الى قراءتها منذ ذلك الحين مرات عديدة ، وبالمتعة ذاتها التي احسست بها في المرة الاولى . واثناء كتابتي لرواية « خريف البطريرك » ، كنت احتفظ برواية ويلدر في متناول يدي كمصدر باهر للتدليل على عظمة السلطة وبؤسها .

ولقد اشتريت منها نسخا كثيرة ، وبلغات مختلفة لاشاطر في متعتي بها اصدقاء من العالم باسره . ولا اذكر ان احدا منهم لم ينحن امام ذلك الينبوع من الجمال . وقد عدت الى قراءتها الآن ، في وقت لا يخطر على بال : اثناء رحلة هادئة بالطائرة استمرت اربع ساعات ، ومن نسخة مستعارة . ولم اكتشف الا الآن كم كان لهذه الرواية المتقنة من اثر في حياتي .

لقد بدأ اهتمامي باسرار السلطة اثر حدث شهدته في كاراكاس ، في الزمن الذي قرأت فيه « ايام العيد س » للمرة الاولى . ولست اذكر الآن على وجه التحديد اي الامرين حدث اولا . كان ذلك في مطلع سنة ١٩٥٨ . فالجنرال ماركوس بيريس خيمينث ، الذي كان دكتاتوراً لفنزويلا خلال عشر سنوات ، قد فرّ الى سانتو دومينغو عند الفجر . وكان على مساعديه ان يرفعوه الى الطائرة

بواسطة حبل ، لان احداً لم يجد الوقت الكافي لوضع سلّم الطائرة . وفي عجلة الهروب نسي الدكتاتور حقيبته اليدوية التي كان يحمل فيها مصروف جيبه : ثلاثة عشر مليون دولار نقداً . بعد ساعات قليلة من ذلك ، كنا نحن جميع المراسلين الصحفيين الاجانب المعتمدين في كاراكاس ، ننتظر تشكيل الحكومة الجديدة في احد صالونات قصر ميرافلوريس الفخمة . وفجاة ، غادر المكتب الذي عقد فيه الاجتماع المغلق ، ضابط من ضباط الجيش يرتدي لباس الميدان ، ويغطي انسحابه بمدفع رشاش جاهز للاطلاق . اجتاز الصالون وهو يمشي القهقري ، وعند بوابة القصر ، صوب سلاحه الى سيارة تكسي ، حملته الى المطار ، وفر من البلاد . الشئ الوحيد الذي بقي منه اثر الوحل الطري الذي خلفته جزمته العسكرية فوق سجاد الصالون الرئيسي متقن الصنع . لقد كابدت يومها نوعاً من الانبهار : فقد ادركت بطريقة مشوشة ، وكما لو ان كبسولة محرمة قد انفجرت في روحي ، ان جوهر السلطة كله كان ماثلا في ذلك المشهد

بعد نحو خمسة عشر عاما ، وانطلاقا من تلك الواقعة ، ودون ان اتوقف عن ذكرها ، وبشكل دائم ، كتبت « خريف البطريرك » . كان نصي الاول في تعلم حل رموز اسرار السلطة هو « ايام العيد س » . والرواية كما يعرف من قرأها ، هي اعادة بناء ادبي للسنوات الاخيرة من الثورة الرومانية ولحياة دكتاتورها يوليوس قيصر بالذات .

الذريعة التي يرتفع بناء القصة حولها هي حفلة صاخبة تقيمها كلوديا بولتشير وشقيقتها على شرف رجلين بارزين : يوليوس قيصر والشاعر فاليريو كاتولو . والحفلة ليست سوى تصريح مرور ادبي ، لانه في السنة التي اقيمت فيها تلك الحفلة ، وهي سنة ٤٥ قبل الميلاد ، كانت قد انقضت ثمان سنوات على وفاة الشاعر كاتولو . لكن كاتبا كبيرا مثل ثورنتون ويلدر لا يمكن له ان ،

يتوقف عند مثل هذه التفاصيل العقلانية ، لانه مضى الى ما هو ابعد منها بكثير ، فالدكتاتور المتشح بافخم ملابسه وزينته في الرواية ، يغادر حفلة ضخمة تقيمها له الملكة كليوباترا في تلك الليلة ، ويذهب للسهر على الشاعر كاتولو الذي كان يحتضر في فراشه . ويقول شاهد عيان مزعوم : « وبقينا نستمع الى الاوركسترا ونتامل السماء المضاءة بالالعاب النارية » وقد نسب الكاتب قصة ذلك السهر على المحتضر الى رسالة كتبتها زوجة كورينليو نيبوت الى شقيقتها التي ولدت بعد وفاة ابيها ، واختتمتها بالاشارة الى ان قيصراً لم يفعل شيئاً لتسلية المحتضر سوى الحديث اليه عن سوفوكليس . وتقول القصة ان «كاتولو قد مات بمرافقة جوقة من اوديب في كولونا » .

الشئ الوحيد الذي كنت قد قرأته عن يوليوس قيصر قبل « ايام العيد س » هو كتب المرحلة الثانوية التي يكتبها الاخوة المسيحيون ، ومأساة شكسبير التي فيها كما يبدو من الخيال اكثر مما تحتويه من الواقع التاريخي . لكنني بعد قراءة « ايام العيد س » ، غصت في المصادر التاريخية وفي تعليقات يوليوس قيصر نفسه ومذكراته الحربية ، وكانت جميعها تشير بالطبع الى النشاط المحموم الذي كان العرافون الرسميون يذبحون به البهائم ويتاملون في ظواهر الطبيعة ليستطلعوا المستقبل . وفي اليوم الاول من ايلول سنه ٤٥ قبل الميلاد - كما يروي ثورنتون ويلدر - تلقى الدكتاتور من عرافيه اكثر من خمسة عشر تقريراً ، يتحدث احدها عن اوز في قلبه وكبده بقع داكنه ، وعن فرخ حمام مشؤوم احدى كليتيه خارج موضعها ، وكبده متورم ، ولونه اصفر وفي حوصلته حجر كوارتز . فقال قيصر وقد شوشته الطوالع المضطربة : « انا الذي احكم كل هؤلاء البشر ، تحكمني طيور ورعود » . ولست ادري اين قرأت ان الامر انتهى به الى اغلاق مجمع المنجمين ، وكتب ضدهم كتاباً بعنوان

«التنجيم » فكان العنوان بحد ذاته قصيدة . لقد بحثت عن هذا الكتاب لسنوات طويلة ، الى ان سالت الناقد ارنستو فويكنين ، وهو الشخص الاكثر احاطة بهذا الموضوع في العالم ، فقال لي بلهجة صارمة وجازمة : « ليس لهذا الكتاب من وجود على الاطلاق » .

ليست « ايام العيد س » في نهاية المطاف الا فرضية حول شخصية قيصر ، ولكنها فرضية قد تكون ارقى من الواقع . « جميعنا نتفهم جيدا تصرف طاهي قيصر الذي قتل نفسه عندما احترق الطعام » ، هذا ما يقوله شخص يدعى كورنيليو نيبوت ، ابتدعه ثورنتون ويلدر . ويقول انه كان هناك ضيوف بارزون حين وقعت محنة احتراق الطعام ، فاجبر رئيس الخدم المذعور الطاهي ان ينقل الخبر بنفسه الى قيصر . لكن هذا الاخير لم يتاثر حين علم بالامر ، بل طلب من الطاهي بكل لطف ان ياتيه بتمر وسلطة بدلاً من العشاء الضائع . حينئذ خرج الطاهي الى الحديقة وذبح نفسه بسكين تقطيع الخضار .

بعد عشرين قرنا على وقوع هذا الحادث ، شاعت في اسبانيا قصة توضح على احسن وجه ، مثلما يوضح الحادث المذكور ، فاجعة السلطة . تقول القصة ان احدى حفيدات الجنرال فرانثيسكو فرانكو ، وعمرها نحو سبع سنوات ، ابدت شيئاً من الضيق في بيت احد الوزراء حين ظهرت في التلفزيون فتاة اعلان جذابة .

قالت الطفلة ان المعلنة « ثقيلة الظل » ... حينئذ سالوها لماذا تقول ذلك، فاجابت : « لان جدي يقول انها ثقيلة الظل » .

فكانت تلك هي المرة الاخيرة التي ظهرت فيها المعلنة الجذابة في التلفزيون .

في الخامس عشر من آذار سنة ٤٤ قبل ميلاد المسيح ، كان الجميع في روما يعلمون ان هناك من يريدون قتل قيصر . الجميع كانوا يعلمون بالامر ما عداه هو نفسه . ويروي بلوتاركو ان ارتيميدورو الاغريقي ، معلم البلاغة اليونانية ، شق طريقه وسط الحشود التي كانت تهتف للدكتاتور وهو في طريقه الى مجلس الشيوخ ، وسلمه ورقة مكتوبة بخط يده ونبهه الى وجوب قراءتها فوراً .

كان من عادة قيصر ان يعطي معاونيه الاوراق الكثيرة التي تقدم اليه في الشارع ، لكنه احتفظ بتلك الورقة في يده اليسرى ليقرأها في اول فرصة مناسبة .

في تلك الورقة ، كانت مدونة تفاصيل المؤامرة التي سيتم فيها اغتياله، لكنه لم يقرأها ابداً ، لانه دخل بعد لحظة الى مجلس الشيوخ ، ولقي هناك مصرعه بثلاث وعشرين طعنة ، وينهي سويتونيو روايته بهذه الطريقة : « لقد قال انتيسيو الطبيب ، انه بين جميع الجراح ، فإن الجرح الثاني في الصدر هو الذي ادى الى الوفاة » . ان اي تشابه بين هذا الكلام واية قصة اخرى ، سواء اكانت حية او ميتة ، هو محض مصادفة .

انتهزنا فرصة وجودنا في اليونان يوماً ، وذهبنا لاستشارة وحي اوراكل. ركبنا حافلة مبردة من اثينا في السابعة صباحاً ، وبعد ثلاث ساعات من ذلك كنا في « دلفوس » ، موطن الوحي ، ومدينة ابولو المقدسة التي كانت في زمانها سرة العالم . كانت الحافلة تغص بيونانيين مدجنين ، يتابعون برصانة شديدة ، في كتيبات ملونة ، شروحات الدليل اليوناني ، التي كان يقدمها بلغة انكليزية تكاد تكون تخيلية .

ان اللغة العالمية في الواقع ليست اللغة الانكليزية ، وانما الانكليزية الركيكة . ولو ان احداً تكلم الانكليزية بشكل مقبول ، لما وجد من يفهم ما يقوله . واثناء توقف سيل المعلومات المطولة ، كنا نحاول التناوم مع انغام الموسيقى العالمية ، وهي ليست موسيقى موزارت ، كما يظن العارفون ، وانما تلك الموسيقى غير المتناهية التي يختارها خبراء سيئون ، والتي تدوي دون هوادة في جميع مصاعد العالم .

كانت الرحلة بطيئة وحذرة ، فالسائقون اليونانيون مزودون بتعليمات تفرض عليهم ممارسة مهنتهم بهدوء ، كي لا يخيفوا السيدات المتقاعدات القادمات من نيفادا ، ومن ميريلاند ، وكينيتكي ، برفقة ازواج مسنين ليسوا ازواجهن في بعض الاحيان ، وانما ازواج مستعارون سراً ليلعبوا معهن لعبة

الحب الخريفي ، بعد استشارة وحي اوراكل . كنا نمضي ببطء عبر حقول قمح مشمسة واشجار زيتون الفية ، ثم عبر مضائق جبلية مرعبة تحلق فيها طيور هائلة وسوداء ، كانت تعتبر في عصور ازهى ، تسور زيوس . وتجرأ الدليل في احدى اللحظات على القول : « يمكنكم ان تشاهدوا الى اليمين برجاً من القرن الخامس عشر » . قال ذلك بشئ من الخجل ، وكان محقاً في ذلك . ففي بلد يجد المرء نفسه وهو ياكل فجاة بملعقة ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد ، لا تتمتع نتفة برج مثل تلك باهمية اكبر من اهمية محطة بنزين . ومع ذلك ، فإن الادلاء يؤدون مهمتهم ، لان السائحين ينتظرون ان يقال لهم كل شئ مقابل المال الذي يدفعونه ، وهم سيسالون الادلاء على اية حال ، إذا لم يقل هؤلاء ذلك من تلقاء انفسهم . لهذا السبب بالذات ، وكلما وصلت الى مدينة ازورها لاول مرة ، اسجل نفسي في برنامج سياحي ، وانهي تلك المسالة دفعة واحدة والى الابد . واعرف ابتداء من تلك اللحظة ، ان كل ما ساراه عليّ ان اكتشفه بوسائلي الخاصة ، بعد ان اكون قد عرفت كل ما هو معروف . بل انني وصلت الى ابعد من ذلك : ففي مدينة مكسيكو ، وبعد ان عشت هناك عشرين سنة ، اشتركت في برنامج سياحي لمجرد الفضول بمعرفة الطريقة التي يعرضون بها المدينة للسائحين ، وقد فوجئت بعدد الاشياء التي كانت عيناي تغفلها كمقيم في المدينة.

بالرغم من ذلك كله ، عليّ ان اعترف بانني اهتم بالاسطورة اكثر من اهتمامي بالحقيقة التاريخية ، وبالتالي فإنني اهتم ، في اليونان ، بهوميرو اكثر من اهتمامي بهيرودوت . لذلك كان اهتمامي منصباً اثناء زيارتي لأوراكل على معرفة مصادر ماساة اوديب ، وليس تاريخ الطغاة الكثيرين الذين لقوا في ذلك المكان نكبتهم او حسن طالعهم . وقد بدأ انفعالي اثناء الطريق ، عندما قال

الدليل : « في هذا الموضع ، كما تقول الاسطورة ، قتل أوديب أباه ، الملك لايوس » . لكنها كانت العبارة الوحيدة التي قالها عن الموضوع طوال الرحلة . ويبدو لي انهم يعتبرون ماساة أوديب ، هنا في اليونان ، مجرد خرافة خيالية ، مثلها مثل مغامرات اوليسيس ونكبة ميديا . لكنني لا ادري لأي اسباب غريبة ، قبلت شخصيات الميثولوجيا في ميادين الحياة الواقعية .

انهم يحدثوننا عن بروميثيو مقيداً تنهشه الجوارح على قمة جبل ، ثم يروون لنا كيف ان ابولو قد ناضل ضد الافعى « بيثون » الى ان تمكن من الحلول محلها ، ويفسرون لنا العالم من خلال الآلهة الذين لا حصر لهم والآلهات الخبيثات وكانهم اكثر واقعية من رجال سوفوكليس ونسائه . بينما يجري بالمقابل إخفاء أفضل الحقائق ، وأكثرها انسانية ، بحياء . فعن البارثينون ، الذي لا يكاد يحتفظ بتماسكه ، ويبدو وكانه مصنوع من قشور البيض ، يقال لنا انه كان معبد اثينا العظيم ، وانه قد حوّل في القرن الثالث عشر الى معبد كاثوليكي على يد الصليبيين ، ثم الى مسجد للأتراك بعد قرنين من ذلك ، ولكنهم يخفون عنا مكانته الاكثر انسانية ، حين كان يستخدم مقراً لإقامة محظيات أحد ملوك مقدونيا في القرن الرابع قبل الميلاد . وبالطريقة نفسها ، يقال لنا انه كان لا بد لكاهنات الاوراكل من ان يكن قد تجاوزن الخمسين من العمر ، وان يكن دميمات وفظات ، وأنهن « منذ اللحظة التي يكرسن فيها انفسهن لخدمة الالهة عليهن ان يهجرن ازواجهن واولادهن » . ولكن لا يقال لنا سبب ذلك ، ولا يقال لنا انهن كن في البدء أجمل العذراوات وأكثرهن نضارة في البلاد وان مفاتنهن كانت تلين اشد الحجاج زهداً .

عندما وصلنا الى قمة معبد دلفوس ، كان الدليل قد روى لنا كل شئ ، لكنه لم يقدم لنا اي عنصر جديد حول ماساة اوديب ، وهي الشئ الوحيد الذي

كان يهمني في نهاية المطاف من الاوراكل . يقال إن الكاهنة ، وقبل ان تتنبأ ، كانت تتطهر في مياه نبع كاستاليا القريبة ، وتمضغ اوراق الغار وتستنشق ابخرة البخور والصبر ، الى ان تفقد السيطرة على نفسها حين يتوجب عليها الرد على اسئلة الحجاج القادمين من جميع ارجاء العالم المعروف حينئذ ، والذين يمكن ان يكونوا ملوكاً او متسولين . ويقال إن اجاباتها كانت عبارة عن زعيق وصراخ غير مفهوم ، يفسره الكهنة على هواهم . اي انه لم يكن بالامكان معرفة المغزى الدقيق للنبوءة ، وكانت جميع النبوءات تبقى غير مفهومة وغامضة الى ان تتحقق . واشهر النبوءات هي تلك النبوءة التي تلقاها الملك كريسو ، الشهير بثرواته الطائلة ، حين اراد ان يعرف إن كان يناسبه خوض حرب ضد الفرس الذين كانت مملكتهم على الضفة الأخرى لنهر هاليس . فرد عليه الوحي في اوراكل : « أجل يا كريسو ، اجتز النهر لتدمر مملكة عظيمة » . فعل كريسو ذلك واندحر وتحققت بذلك النبوءة ، اذ انه دمر مملكته ذاتها ، وكانت من اعظم الممالك في زمانه . وعلى عكس النبوءات الأخرى جميعها ، كانت النبوءة التي تلقاها اوديب ، ملك طيبة ، مباشرة وواضحة : سينحسر الوباء يوم يكشف عن قاتل لايوس ، الملك السابق . وقد اكتشف أوديب ذلك كما هو معروف ، واكتشف في الوقت ذاته حقيقة هويته وقدره . وهكذا ولدت ، والى الابد ، الحبكة الأدبية الوحيدة ذات الكمال المطلق : حيث المحقق الذي يكتشف انه هو نفسه القاتل .

لا شك ان الشئ الاكثر ابهاراً في معبد دلفوس هو المكان الذي بني فيه، حتى ان المرء يبدي استعداداً للإيمان بانه كان سرّة الارض فعلاً ، لو لم تكن معروفة مرتفعات ماتشو بيتشو ، في جبال الانديز ، حيث يشعر الانسان انه قد انتقل الى كوكب آخر . ويكون المرء مستعداً للسجود اعجاباً امام منشآت

دلفوس القائمة على احجار واحلام ، لو لم يكن معروفا محيط اوكسمال وتشيتشين اتزا السحري ، في يوكاتان ، حيث يخيل لنا اننا ما نزال نشعر بانفاس من عاشوا هناك . لكن المقارنة ليست عادلة ، لان مراكز الطقوس في المكسيك ما تزال سليمة وكانها لم تمس ، بينما لا يوجد من نصب اليونان سوى بقايا عملية نهب تاريخية جائرة .

الحقيقة ان الناس يذهبون الى اليونان ليتعرفوا على الاماكن التي كانت تقوم فيها المنشآت ، ويتخيلوا من خلال القراءات الكثيرة المتأخرة ، ومن خلال انكليزية الادلاء التقريبية ، كيف كانت النصب قبل ان تمر بها الفيالق الامبراطورية ، القادمة من البلدان التي تشعر اليوم انها متحضرة . ثمة جزيرة صغيرة جداً - ميلوس - ضائعة وسط جزر ارخبيل سيكلاد ، لا يتذكرها احد لدى المرور من هناك الا لانه عثر فيها على تمثال فينوس مبتور الذراعين ، الذي صار اليوم ، الى جانب الجوكندا ، من اكثر مقتنيات متحف اللوفر جاذبية .

ما زال يوجد الى اليوم ، في متحف دلفوس - بمعجزة محضة - تمثال حوذي مصبوب من البرونز ، يبدو وكانه كائن حي . وهو في نظري أكثر الاعمال ابهاراً بين فنون جميع العصور . اما ما عدا ذلك فليس سوى انقاض متبقية من عمليات النهب ، لأن افضل ما في ذلك العالم - بإستثناء الأماكن الجغرافيه، التي لا يمكن نقلها لحسن الحظ - لم يعد موجوداً حيث وضعته الالهة ، وانما هو الان في المتحف البريطاني بلندن ، او في متحف اللوفر بباريس ، رغم حكمة وحي الاربعاء وقدرته التكهنية ، ذاك الوحي الذي لم يعد يتذكر أوديب .

٢٥ مليار كيلومتر مربع بلا زهرة واحدة

عندما حطّ نيل ارمسترونغ فوق سطح القمر ، منذ سبعة عشر عاماً ، صاح مذيع التلفزيون منفعلاً : « ها هو ذا الانسان يضع قدمه على القمر لاول مرة في التاريخ » . ففوجئ الطفل الذي كان يتابع معنا بشغف تفاصيل الهبوط ، وصرخ مذهولاً :

- أهي المرة الأولى ؟ يا للحماقة !

لقد كانت خيبة أمله مفهومة . فطفل من عصره ، اعتاد التسكع كل ليلة في ارجاء الفضاء الكوني ، عبر التلفزيون ، يبدو له خبر وصول الانسان الى القمر لاول مرة أشبه بالعودة الى العصر الحجري . ولقد سبب الخبر لي انا ايضاً نوعاً من فتور الهمة ، ولكن لأسباب أشد بساطة . فقد كنا نقضي الصيف حينئذ في جزيرة بانيتلاريا ، في اقصى جنوب صقلية ، ولست اظن ان في العالم كله مكانا أفضل منها للتفكير بالقمر .

انني اتذكر كما في حلم : بطحاء الصخور البركانية المترامية ، والبحر الساكن ، والبيت المطلي بالكلس الابيض كله ، حتى جدران الاجر فيه ، والذي تبدو من نوافذه ، في الليالي الهادئة الرياح ، حزم النور المنبعثة من فنارات

افريقيا . وفيما كنا نستكشف الاعماق البحرية الهاجعة حول الجزيرة ، اكتشفنا صفاً من الطوربيدات الصفراء الغارقة منذ الحرب الأخيرة ؛ واستخرجنا جرة مزينة باغصان غار متحجرة ما زالت فيها بقايا نبيذ مغرق في القدم ، وكانت جوانبها قد تآكلت بفعل السنين الطويلة . وسبحنا في مياه راكدة مدخنة ، تبلغ من الكثافة حداً يجعل المشي فوقها امراً ممكناً .

كنت افكر ، بشئ من التشوق ، بانه لا بد للقمر من ان يكون مثل ذلك المكان . لكن هبوط ارمسترونغ ضاعف من غروري الوطني : فبانتيلاريا كانت افضل من القمر .

بالنسبة لنا ، نحن الذين نضيع الوقت مفكرين بمثل هذه الامور ، هنالك قمران اثنان . (القمر) الفلكي ، وهو ذو قيمة علمية كبيرة دون شك ، ولكنه يخلو تماماً من اية قيمة شاعرية . اما الآخر ، فهو القمر السرمدي الذي نراه على الدوام معلقاً في السماء : انه قمر أغاني البوليرو الوحيد ، والذي لن يتمكن احد - لحسن الحظ - من الوصول اليه .

يبدو ان غزو الفضاء ما يزال محكوماً حتى الآن بهذا النوع من خيبة الأمل . وخيبة الآمل الاكثر حزنا هي انه - بعد رحلة ڤوياجر (١) المذهلة - بات مؤكداً ، دون اي شك ، انه لا وجود في هذا الاقليم المتناهي الصغر ، الذي هو المجموعة الشمسية ، اي اثر للحياة حسب مفهوم الحياة الذي نعرفه . فالزهرة وعطارد ، الكوكبان الاقرب الى الشمس ، كانا مستبعدين من هذا الاحتمال منذ زمن بعيد ، لانهما كرتان متاججتان ليست لهما اية قيمة تجارية . وأخاديد المريخ التي كنا نفترض ان ابناء عمومتنا الفضائيين هم الذين حفروها ، ليست على ما يبدو الا مجرد وهم . والمشتري الاكبر من الارض ب ٣١٧ مرة ، ما هو الا عملاق احمق ، درجة حرارته مئتان تحت الصفر . وبعد الارتياد المثمر

لكوكب زحل ، لم يبق لنا سوى معرفة أورانوس ونبتون وبلوتون ، هؤلاء الشيوخ الثلاثة المتوحدون في ضواحي المجموعة الشمسية ، ذوو المدارات المفرطة في الاتساع ، حتى ان الاخير منهم يحتاج الى اكثر من ٢٤٨ سنة من سنواتنا ليقوم بدورة واحدة حول الشمس .

ان فائدة هذه الاكتشافات كبيرة ولا حدود لها بالنسبة للعلوم ، شريطة ان تكون القضية واضحة في ذهن الجميع : لا وجود لأحد هناك . انه ليل جليدي فسيح على امتداد ٢٥ مليار كيلو متر مربع ، حيث يوجد اقيانوس من النتروجين السائل ، ورياح اشد تدميراً بعشر مرات من اعاصير سومطرة ، وعواصف قيامية يمكن لها ان تستمر حتى ٣٠٠٠٠ سنة متواصلة ، ولكن لا وجود هناك ولو لزهرة واحدة ، حتى ولا وردة بائسة مثل هذه التي فوق طاولتي ، والتي ربما تشعر بالضجر لانها ليست الا ما هي عليه ، جاهلة انها بحد ذاتها معجزة لا تتكرر في الكون .

لقد كتب لوثيانو دي ساموساتا – حسب قول خورخي لويس بورخيس في مقدمته لكتاب براد بوري . (أخبار مريخية) – ان سكان القمر كانوا يغزلون وينسجون المعادن والزجاج ، وانهم كانوا ينزعون العيون من حدقاتها ويعيدونها ثانية الى مكانها ، ويشربون خلاصات الهواء . انه استشهاد مثل جميع استشهادات بورخيس : مذهل ومثير للريبة في الوقت ذاته . لكنه يوضح جيداً الصورة التي كانت شائعة في القرن العاشر ، عن الكائنات غير الارضية . ومع تقدم العلم وتهذيب المخيلة ، لم تتحسن الرؤيا ، وانما حدث عكس ذلك تماماً . فكتّاب الخيال العلمي يعرضون اقرباءنا الفضائيين على انهم مخلوقات ضبابية ذات آذان مثل آذان الخفاش ، وذوي هوائيات بدلاً من القرون ، وأغشية بين الأصابع ومحاجم في مواضع الحواس . وكل ما هو مرتبط بهم هو ذو طبيعة

لزجة ومرذولة ، وتفوقهم الوحيد علينا هو أسلحتهم الشيطانية وذكائهم العجيب في اقتراف الشرور . ولم تتوصل السينما الى رعب اشد هولاً من رعب افلام الفضاء .

ربما افادتنا خيبة الامل في وجود الجيرة الفضائية ، بالسعي لتصحيح سوء التفاهم الخطير والظالم الشائع . وربما – بعد كل هذه الحقب من الخيال البائس – بدأنا نفهم ان سكان الكواكب الاخرى لا يمكن ان يكونوا حيث بحثنا عنهم طويلاً ، لأنهم موجودون هنا على الارض قبلنا بكثير : انهم الجراثيم . فمنذ آلاف السنين والجراثيم تعيش في حياتنا ، وتبحر في دمنا ، وتنام في جراحنا ، وتولد وتموت معنا ، وما زلنا – نحن وهي – لا نعرف من نحن . فطبيعتها المختلفة تمنعها من عمل ما ترغب فيه ، وتمنعنا من عمل ما نرغب فيه ، الا وهو جلوسنا معاً لتناول الطعام على المائدة ذاتها ، ولعب الورق ، ورواية حقائق الكون للأطفال كي لا يذهبوا الى السينما ويشاهدوا كل تلك الإفتراءات عن الفضاء .

وبدلاً من ذلك ، ترانا نلجأ الى المشاحنات منذ البداية . فهي تسعى لإبادتنا ونحن نسعى لإبادتها ، في حرب ضارية لا ندري بالتحديد ضد من نشنها . اذ من المحتمل جداً ان تكون جراثيمنا ، مثلنا تماماً ، جاهلة كذلك اين هي ، ولماذا جاءت .

لقد قال بول ايلوار يوماً : « هنالك عوالم اخرى ، لكنها في هذا العالم » وثمة كاتب عظيم آخر من عصرنا ، ربما لا يؤمن بالمريخيين ، قال الشئ ذاته بطريقة اشد قسوة : الارض هي جحيم كواكب اخرى .

إنفجار ديموقليس

نص كلمة القاها الكاتب في جلسة افتتاح ندوة السلام ونزع السلاح ، التي عقدت يومي ٦ و ٧ آب ١٩٨٦ ، في « اكستابا » بالمكسيك ، وشارك فيها الرؤساء : راؤول الفونسين (رئيس الارجنتين) ، اندريس باباندريو (اليونان) ، راجيف غاندي (الهند) انغفار كارلسون (السويد) ، ميغل دي لا مدريد (المكسيك) ، وجوليوس نيريري (تنزانيا) .

بعد دقيقة واحدة من الانفجار الأخير ، سيكون اكثر من نصف البشر قد قضوا نحبهم ، وسيعود الظلام المطبق ليخيم على العالم . وسيحل شتاء ذو مطر برتقالي وأعاصير جليدية ، فيقلب الزمن في المحيطات ، ويعكس مسار الأنهار التي ستكون اسماكها قد ماتت ظمأ في المياه المتقدة ، ولن تجد عصافيرنا السماء . ستغطي الثلوج الأبدية وجه الصحراء الكبرى ، وستختفي مناطق الأمازون المترامية عن وجه الارض المُدَمَّر بفعل وابل البَرد ، وسيتراجع عصر الروك وزرع القلوب الى طفولته الجليدية . أما الكائنات البشرية التي ستنجو من ضربة الرعب الأولى ،وأولئك الذين نالوا امتياز التواجد في ملجأ آمن في الساعة الثالثة من مساء يوم اثنين الكارثة العظمى المشؤوم ، سيكونون قد نجوا بحياتهم لكي يموتوا بعد ذلك من هول ذكرياتهم وحدها . لقد انتهى الخلق . وفي هيولي الانسانية النهائي ، وفي الليل الأبدي ، ستكون الصراصير هي الاثر الوحيد المتبقي مما كانته الحياة .

السادة الرؤساء ،

السادة رؤساء الحكومات ،

أيتها الصديقات ، أيها الأصدقاء ،

ليس ما قلته محاكاة شوهاء لهذيان يوحنا في منفاه ببِاتموس ، وإنما هو الرؤية المسبقة لكارثة كونية قد تقع في هذه اللحظة بالذات : انفجار – مُوَجَّه او صُدَفي – لجزء ضئيل فقط من الترسانة النووية التي تنام بإحدى عينيها وترصد بالعين الاخرى ، في مخازن القوى العظمى .

هكذا هي الأمور . فاليوم ، السادس من آب ١٩٨٦ ، يوجد في العالم اكثر من خمسين الف رأس نووي منصوبة . وهذا يعني ، بعبارة مألوفة ، ان كل كائن بشري ، دون استثناء الاطفال ، يجلس على برميل يحتوي بضعة اطنان

من الديناميت ، سيؤدي انفجارها الكامل الى محو كل أثر للحياة عن وجه الارض اثنتي عشرة مرة . إن القدرة التدميرية لهذا التهديد المريع ، المسلط على رؤوسنا مثل انفجار ديموقليس ، تطرح الامكانية النظرية في إلحاق الأذى باربعة كواكب أخرى ، إضافة لتلك التي تدور حول الشمس ، والتاثير على توازن المنظومة الشمسية . ليس هنالك من علم ، او فن او صناعة قوضت نفسها مثلما فعلت الصناعة الذرية منذ نشاتها ، قبل احدى وأربعين سنة ، وليس هنالك ابداع من ابداعات الانسان الخلاّق حاز على مثل هذه القدرة في الحسم على مصير العالم .

ان العزاء الوحيد في هذه التبسيطات النظرية - ان كانت تنفعنا بشئ -، هو التاكيد على ان الحفاظ على الحياة الانسانية فوق الأرض ما زال ارخص كلفة من الطاعون النووي . فمجرد وجود الكارثة الرهيبة الحبيسة في مخازن الموت في الدول الأغنى ، يهدر إمكانيات الوصول الى حياة أفضل للجميع .

ففي مجال رعاية الطفولة على سبيل المثال ، يشكل هذا الامر حقيقة حسابية أولية . فقد وضعت اليونيسيف عام ١٩٨١ برنامجاً لحل المشاكل الاساسية لخمسة عشر مليون طفل يعيشون دون مستوى الفقر في العالم . ويتضمن البرنامج تقديم الرعاية الصحية الاولية ، والتعليم الاساسي ، وتحسين ظروف النظافة ، والتزود بمياه الشرب والأغذية . وكلفة هذا كله ، الذي يبدو حلماً مستحيلاً ، هي مئة مليون دولار . لكن هذا المبلغ لا يكاد يعادل كلفة مئة قاذفة استراتيجية من طراز ب - ١٣ ، واقل من كلفة سبعة الاف صاروخ كريزر ، ستوظف حكومة الولايات المتحدة لإنتاجها واحداً وعشرين الفاً ومئتي مليون دولار .

وفي مجال الصحة مثلا : بكلفة ١٠ حاملات طائرات من نوع نيميتز ، من الحاملات الخمس عشرة التي ستصنعها الولايات المتحدة قبل العام ٢٠٠٠ ، يمكن تحقيق برنامج وقائي يحمي ، خلال هذه السنوات الاربع عشرة القادمة ، أكثر من مليار شخص من مرضى الملاريا ، ويحول دون موت أكثر من أربعة عشر مليون طفل في افريقيا وحدها .

في مجال التغذية مثلاً : كان يوجد في العالم السنة الماضية ، استناداً الى احصائيات منظمة (الفاو Fao) ، حوالي خمسمائة وخمسة وسبعين مليون شخص يعانون الجوع . ولم يكن تامين حاجاتهم الضرورية من السعيرات الحرارية يكلف إلا أقل من مئة وتسعة وأربعين صاروخاً من نوع إم اكس ، من الصواريخ المائتين وثلاثة وعشرين التي ستنصب في اوروبا الغربية . وبسبعة وعشرين صاروخاً من تلك الصواريخ ، يمكن شراء المعدات الزراعية اللازمة لكي تنتج البلدان الفقيرة كفايتها الغذائية خلال السنوات الاربع القادمة ، علماً ان كلفة هذا البرنامج الغذائي لا تصل الى تُسع الميزانية العسكرية السوفييتية لعام ١٩٨٢ .

في مجال التربية : بقيمة غواصتين ذريتين من نوع « تريدنت » التي تخطط حكومة الولايات المتحدة الحالية لصنع خمس وعشرين منها ، او بعدد مماثل من غواصات « تيفون » التي يبنيها الاتحاد السوفييتي ، يمكن لنا أخيراً ان نواجه شبح الأميّة في العالم . ومن جهة أخرى ، فإن بناء المدارس ، وتاهيل المعلمين اللازمين للعالم الثالث ، من اجل تغطية احتياجات التربية الاضافية خلال السنوات العشر القادمة يمكن تغطية نفقاته كلها بما يكلفه صنع مائتين وخمسة وأربعين صاروخاً من نوع « تريدنت ٢ »، ويزيد بعد ذلك أربعمائة وتسعة عشر صاروخاً من أجل تطوير التعليم في السنوات الخمس عشرة التالية .

ويمكن القول اخيراً ، ان الغاء ديون العالم الثالث الخارجية كلها ، ومساعدته خلال عشر سنوات قادمة ، يكلف ما يزيد قليلاً عن سدس نفقات العالم العسكرية خلال الفترة ذاتها . ومع ذلك ، وامام هذا الهدر الاقتصادي الهائل ، فإن ما يثير القلق والأسى هو التبديد البشري : فالصناعة الحربية تأسر اكبر عدد من العلماء ، وهو عدد لم يجتمع مثله لإنجاز اية مهمة خلال تاريخ البشرية كله . والمكان الطبيعي لهؤلاء العلماء ليس هناك ، وانما هنا ، على هذه المائدة ، وتحريرهم واجب لا بد منه ، لكي يساعدونا في مجالات التعليم والعدالة ، لخلق الشئ الوحيد القادر على انقاذنا من البربرية : ألا وهو ثقافة السلام .

رغم هذه المعلومات المأساوية المؤكدة ، فإن سباق التسلح لا يتوقف لحظة واحدة . فالآن ، وفيما نحن نتناول الغداء ، جرى بناء رأس نووي جديد . وغداً ، حين نستيقظ ، ستكون هناك تسعة رؤوس نووية جديدة في مخازن الموت ببلدان العالم الثري . ان كلفة واحد من تلك الرؤوس تكفي لتعطير شلالات نياجارا بالصندل ، ولو ليوم أحد خريفي واحد .

لقد تساءل روائي عظيم من زمننا ما اذا كانت الأرض هي جحيم كواكب أخرى . وأقول : ربما هي أقل من ذلك بكثير ... ربما هي مجرد قرية بلا ذاكرة ، مفلتة من يد آلهتها في اقصى ضاحية من الوطن الكوني الكبير . لكن الشك المتزايد في انها المكان الوحيد في المنظومة الشمسية الذي ازهرت فيه مغامرة الحياة العجيبة ، يقودنا دون مواربة الى استخلاص نتيجة مثبطة للعزيمة: إن سباق التسلح يسير في اتجاه معاكس للذكاء .

ليس معاكساً للذكاء الانساني وحسب ، وانما لذكاء الطبيعة ذاتها ، التي تجاوزت غايتها رؤيا الشعر وبصيرته . فمنذ ظهور الحياة المرئية على الارض

كان لا بد من مرور ثلاثمئة وثمانين مليون سنة كي تتعلم الفراشة الطيران ، وكان لا بد من مئة وثمانين مليون سنة اخرى كي تتقن الطبيعة صنع وردة دون ان يكون لها غرض آخر سوى الجمال ، وكان لا بد من اربعة عصور جيولوجية لكي تتمكن الكائنات البشرية - خلافاً لجدنا قرد البيتكانتروب - من الغناء خيراً من العصافير ، ومن الموت حباً . وليس مشرفاً للعبقرية البشرية ، في العصر الذهبي للعلم ، أن تتصور أن عملية مكلفة وهائلة ، احتاج إنجازها لملايين السنين، يمكن لها أن ترجع الى العدم الذي جاءت منه ، وذلك بمجرد الضغط على زر .

وفي محاولة لمنع حدوث ذلك ، اجتمعنا هنا ، لنضم صوتنا الى أصوات لا حصر لها تطالب بعالم خال من الأسلحة وبسلام عادل . ولكن إذا ما حدث ذلك - بل إذا حدث فعلاً - ، فلن يكون اجتماعنا هنا عديم الجدوى . لأنه ربما جرى بعد ملايين وملايين الحقب من وقوع الانفجار ، تتويج سلمندر مختال ، عاد ليجتاز سلم الأجناس كله ، بتاج أجمل إمرأة في الخلق الجديد . فعلينا نحن رجال العلم ونساءه ، رجال الأدب ونساءه ، رجال الذكاء والسلام ونساءه ، علينا جميعاً تقع مسؤولية ألاّ يذهب المدعوون إلى حفلة التتويج الخيالية تلك وهم مثقلون بالمخاوف التي نشعر بها اليوم . لهذا فإنني أقترح بكل تواضع ، ولكن بكل ما في الروح من تصميم ، ان نصل ، الآن وهنا ، الى الإلتزام بوضع تصور وصنع فلك الذاكرة ، القادر على النجاة من الطوفان النووي . أن نصنع نوعاً من قنينة الناجين من الغرق الكوني ، ونلقي بها في اقيانوسات الزمن ، لكي تعرف الانسانية الجديدة عنا ما لا يمكن للصراصير أن ترويه لها : ان تعرف أن الحياة كانت موجودة هنا ، وأن الألم والظلم كانا سائدين فيها ، ولكننا رغم ذلك كله عرفنا الحب ، وكنا قادرين على تصور السعادة . وأن نعرف

ونجعل جميع الازمنة تعرف من هم المسؤولون عن كارثتنا ، وكم صموا آذانهم عن صرخاتنا المطالبة بالسلام وبجعل هذه الحياة هي أفضل الحيوات الممكنة ، وبأية اختراعات همجيّة ، وفي سبيل أية مصالح بائسة محوها من الكون .

في فترة تكاد تكون غير واقعية ، كان فيها جميع الناس شباناً ، غلب النوم الناقد السينمائي المكسيكي اميليو غارسيا ريبرا ، في غرفةٍ بأحد الفنادق ، وهو يدخن في سريره . أفلتت السيجارة من فمه في اللحظة ذاتها التي أفلت فيها الكتاب من يده . وعندما استيقظ كان يوشك أن يموت مختنقاً ، في غرفة يملؤها الدخان ، وفوق فرشة مشتعلة . ولم يكن ممكناً اقناع مدير الفندق بأن ما جرى هو حادث عادي ، وأنه لا بد لعقود التامين من أن تأخذه بعين الاعتبار ، وتدفع التعويض ، مثلما هو الأمر بالنسبة للكؤوس التي تتكسر والسجاد الذي يهترئ عند ترك صنبور الحمام مفتوحاً ، وانه ليس من العدل بالتالي ، محاولة اضافة ثمن الفرشة المحروقة الى فاتورة حساب ناقد سينمائي، ترفه البرجوازي الوحيد هو التدخين نائماً . ولكن لم تكن ثمة وسيلة : فقد قبض الفندق ثمن الفرشة بسعر فرشة جديدة .

لقد تذكرت هذه الحادثة الشبابية وأنا أقرأ مقالاً عن مخاطر التدخين ، لا يذكر كاتبه السرطان كاحد اكثر تلك المخاطر رهبة . يقول المقال الذي وزعه قسم الخدمات الاخبارية في النيويورك تايمز : « تشير التقديرات الى ان ما لا يقل عن ٢٥٠٠ شخص يموتون سنوياً في حرائق تسببها السجائر ، وان نحو ٢٥٠٠٠ آخرين يتضررون من حرائق ناتجة عن السبب ذاته ، وانه تسجل

خسائر تزيد قيمتها عن ٣٠٠ مليون دولار سنوياً » . والمشكلة ، فوق ذلك هي ان تلك الكوارث تحدث في اماكن لا يمنع فيها التدخين ، مما يعطينا فكرة عما سيكون عليه حجم الاضرار لو لم تكن توجد قيود تحد من حرية المدخنين .

لقد حدثني أحد الطيارين يوماً عن سبب منع التدخين في الطائرات عند الاقلاع وعند الهبوط فقط ، ولست اذكر التوضيح الذي قدمه لي ، ربما لانه لم يكن مقنعاً . ومع ذلك ، فإنني كلما رأيت أحداً يدخن اثناء رحلة في الطائرة ، يراودني شعور يقيني بانه يقترف أمراً على جانب كبير من التهور ، وأنه يعرض حياة جميع المسافرين لخطر اضافي ، فضلاً عن المخاطر الكثيرة التي يعرضنا اليها الإبحار الجوي بحد ذاته . وقد سالني جاري في المقعد قبل مدة ، أثناء رحلة فوق المحيط الأطلسي ، عما إذا كان سيزعجني لو انه دخن سيجارة ، فاجبته أن لا ، طالما تلطف ودخن سيجارته وهي مطفأة . لقد أردت أن أقول له بذلك إن الدخان لا يسبب لي أية مضايقة ، لكنني لا أستطيع ان اتحمل التوتر الذي تسببه لي رؤية جمرة متقدة داخل حيز اصطناعي مغلق ، خاضع لضغط ألف متر على ارتفاع ١٥٠٠٠ قدم ، ومنطلق بسرعة ٩٠٠ كيلو متراً في الساعة . لم يكن التدخين ممنوعاً في دورات المياه بالطائرات الى ما قبل خمس سنوات . أما الآن ، فلا توجد لوحات تنبيه تمنعه وحسب ، وانما يرد منعه كذلك التعليمات الشفوية التي تنطلق من مكبر الصوت باصرار مريب ، لتقول دون أي سبب ظاهر أحياناً ، إن التدخين ممنوع في دورات المياه .

ثمة مؤشرات معقولة بان ذلك المنع جاء نتيجة حادث مروع ، وقع منذ ست سنوات ، في أحد مطارات باريس ، عندما هوت على الأرض طائرة عملاقة تابعة لشركة أميركية لاتينية وتحطمت على بعد أمتار قليلة من المدرج . التحقيقات في الحادث ، التي علمت بها ، لم تنشر مطلقاً ، ولكن هناك روايات

جدية جداً تقول إن المسافرين قد ماتوا مختنقين بسبب دخان المواد البلاستيكية المشتعلة في احدى دورات المياه . ويبدو أن أحد المسافرين قد ترك سيجارة مشتعلة هناك .

من السهل تصور السبب الذي يجعلني أشعر بالراحة ، وأنا أروي هذه الفظائع . فالمسالة هي انني مدخن متقاعد ، مع انني لم أكن من صغار المدخنين . لقد سمعت منذ زمن قريب أحد الأصدقاء يقول إنه يفضل ان يكون سكيراً معروفاً على ان يكون مدمن كحول مجهول . وقد قلت في إحدى المرات شيئاً آخر ، اقل ذكاء ، ولكنه ربما كان أكثر صراحة الآن : « أفضل الموت على ترك التدخين » . ومع ذلك ، فقد تركت التدخين منذ سنتين . لقد دخنت مذ كنت في الثامنة عشرة من عمري وبوتيرة لا أعرفها لدى كثير من المدخنين المتمادين . ففي اللحظة التي تركت فيها التدخين ، كنت ادخن اربع علب من سجائر التبغ الأسود خلال أربع عشرة ساعة : اي ٨٠ سيجارة . وقد قدر أحدهم أنني كنت أضيع من تلك الساعات الأربع عشرة المفيدة ، أربع ساعات كاملة في عملية إخراج السيجارة من العلبة ، والبحث عن الكبريت ، واشعال السيجارة . لقد كنت أدخن بإفراط ، ولكنني لم اكن تابعاً منكوباً : فانا لم أنم في يوم من الايام أثناء التدخين . كما انني لم أحرق مقعداً أو سجادة في إحدى زياراتي ، ولم أدخن عارياً وأنا أتمشى منتعلاً حذائي فقط – وهذا من أسوأ الاشياء التي تحدث في الحياة – . ولم أنس سيجارة مشتعلة في أي مكان ، وخصوصاً في دورة مياه إحدى الطائرات بالطبع . لست أنوي بكلامي هذا القيام بالتبشير ، رغم اني أمارس ذلك واحبه عادة ، مثل جميع المرتدين الى الهداية . بل على العكس من ذلك : فعلي أن أقول انني لم اتعرض ، خلال سنواتي الطويلة كمدخن ، لنوبة سعال او لأي اضطراب في القلب ، او أي مرض كبير أو صغير

من تلك ، الامراض التي تنسب الى كبار المدخنين . ولكنني عندما تركت التدخين بالمقابل ، أصبت بعدوى إلتهاب مزمن في القصبات الهوائية ، كلفني الشفاء منه مشقة كبيرة . واكثر من كل ذلك : لم اترك التدخين لأي سبب معين ، ولم أشعر مطلقاً بأني أصبحت احسن حالا أو اسوأ حالاً ، ولم يتعكر مزاجي ، ولم يزدد وزني ، واستمر كل شئ كما لو انني لم ادخن في حياتي أبداً . أو كما لو انني ما زلت مستمراً في التدخين .

لقد كنت أردد طوال سنوات كثيرة نكتة ضعيفة : « الطريقة الوحيدة لترك التدخين ، هي في التوقف عن التدخين بتاتاً » . وكانت مفاجآتي الكبرى في الدنيا هي انني أدركت حين تركت التدخين ، أن ذلك القول لم يكن نكتة ضعيفة ، وانما الحقيقة الناصعة . لكن الطريقة التي جرى بها الأمر تستحق الذكر ، فلربما وصلت هذه السطور الى عيني أحد رغب يوماً في ترك التدخين ، وعجز عن ذلك . حدث الأمر في برشلونة ، في ليلة خرجنا فيها لتناول العشاء مع الطبيب لويس فيدوتتشي وزوجته ليتيسا ، وكان سعيداً لانه كان قد ترك السيجارة منذ نحو شهر . سألته وانا مقدر لقوة ارادته ، كيف توصل الى ذلك . فاوضح لي الامر بحجج مقنعة تماماً ، جعلتني في النهاية اسحق عقب سيجارتي في المنفضة ، وكانت تلك هي السيجارة الأخيرة التي دخنتها في حياتي . بعد اسبوعين من ذلك ، عاد الدكتور لويس فيدوتتشي للتدخين . بدأ أول الامر بغليون مطفأ ، وبعد ذلك بغليون مشتعل ، ثم بغليونين ، فثلاثة ، فأربعة غلايين مختلفة ، وهو يدخن الآن مجموعة غلايين بديعة تضم أربعين غليوناً من جميع الاصناف . وليستريح من كل تلك الغلايين ، فإنه يدخن احيانا سيجاراً من جميع الأنواع والطعوم والأحجام . ويقدم للأمر تفسيراً مقبولاً : فهو لم يقل لي مطلقاً انه ترك التدخين ، بل قال إنه ترك السيجارة .

جميع هذه التجارب - والتي ربما لا تعدو كونها ومضات الحسد التي يشعر بها ، دون ريب ، الرهبان الذين خلعوا مسوحهم - تتيح لي ان افكر بان التدخين وعدم التدخين قد يكونان سواء . لكن من يديرون الحملات ضد التدخين، يجب الا يكونوا من الاطباء وعلماء النفس - الذين لم يتمكنوا مع ذلك من اقناع الكثيرين - وانما يجب اضافة تلك المهمة الى المهمات المتنوعة والمثمرة التي يؤديها رجال المطافئ .

الزوجات السعيدات ينتحرن في الساعة السادسة

اتسلى أحياناً ، في محلات السوبرماركت ، بمراقبة ربات البيوت ، وهن يقفن حائرات امام الرفوف لتقدير مآل الذي يشترينه ، أراهن يتجولن مع عرباتهن وسط متاهة البائع المعروضة لفضولهن : فاسأل نفسي دوماً ، بعد التفحص ، أي واحدة منهن هي التي ستنتحر اليوم في الساعة السادسة مساء

لقد جاءتني هذه العادة السيئة ، من دراسة طبية حدثتني عنها منذ سنوات صديقة طبيبة ، وحسب تلك الدراسة ، فإن اكثر النساء سعادة في الديمقراطيات الغربية ، وبعد ان يعشن حياة خصبة كأمهات انجيليات ، ويساعدن أزواجهن على الخروج من المستنقع ، ويربين أبناءهن ليصبحوا شديدي العود ولينى القلب ، ينتهين الى الانتحار ، حين يبدو أن جميع المشاكل قد تم تجاوزها ، وأنه لم يبق امامهن سوى الابحار في مستنقعات خريفهن الراكدة ومعظمهن ، حسبما تقول الاحصائيات ، ينتحرن في المساء

لقد كتب دوماً عن شرط المرأة ، وعن سر طبيعتها ومن الصعب معرفة الآراء الاقرب الى الصواب اذكر رأيا شديد الشراسة لا اريد التشهير بصاحبه لانه شخص اقدره كثيراً ، واخشى ان أعرضه لغضب قارئات هذه

الملاحظة المحتملات ، وتقول عبارته : « النساء لا ينشدن اكثر من دفء منزل وحماية سقف يعشن في خوف دائم من الكارثة ، وليس هناك من أمان يحمل ما يكفي من الامن في نظرهن ، وليس المستقبل في عيونهن غير مأمون وحسب ، وإنما هو كارثي أيضاً وفي نضالهن المسبق ضد جميع هذه الشرور الغامضة، لا توجد حيلة الا ويلجأن اليها ، ولا سلب الا ويستخدمنه ، ولا يوجد اي ابداع او خيال الا ويكافحنه ، ولو ان الحضارة كانت بين ايدي النساء ، لعشنا الى اليوم في كهوف الجبال ، ولتوقف ابداع البشر عند حدود الحصول على النار ، ولكان جل ما يطلبنه من الكهف ، اضافة لكونه مأوى هو ان يكون افخم درجة واحدة من كهف جارتهن ، ولكان كل ما يطلبنه من اجل امن اولادهن ، هو الاحتفاظ بهم آمنين في كهف كل كهفهن » ، وفي الزمن الذي اطلعت به على هذا الكلام ، قلت في مقابلة صحفية : « جميع الرجال عنينون » ولم يستطع اصدقاء كثيرون، وخصوصا ممن لم يكونوا كذلك ، ان يكبحوا اندفاع حميتهم الرجولية ، فردوا علي بشتائم علنية وأخرى وجهوها الي مباشرة ، يمكن ايجازها جميعها في عبارة واحدة : « كل اناء بما فيه ينضح » ، وافكر الآن في ان العبارة التي قيلت عن النساء ، وعبارتي التي قلتها عن الرجال ، تستوجبان على حد سواء ، اللوم في شيء واحد ، هو المبالغة ، ليس هناك شك في اننا جميعنا ، نحن الرجال ، نكون عنينين في لحظة لا نتوقعها ، وخصوصا عندما لا نريد ان نكون كذلك ، لانهم علمونا ان النساء ينتظرن منا اكثر بكثير مما نستطيعه ، ومثل هذا الشبح كفيل ، عندما تحين ساعة الجد ، بان يثبط عزيمة المتواضعين ، ويشوش المتعجرفين اما العبارة حول النساء ، وكانت تشير في الحقيقة الى نساء الامبراطورية الرومانية ، فتفتقر الى الاشارة الى هول ذلك الظرف الذي يحمل ، في عصرنا ، عدداً كبيراً من ربات البيوت على تناول زجاجة كاملة من حبوب

المنوّم ، حبة بعد اخرى ، والى انهن يفضلن عمل ذلك مع كاس خمر ، في الساعة السادسة مساء .

ليس هناك ما هو اقسى وافحل وافقر من لوجستية البيت ، وأحد اكثر الامور التي تذهلني ، والتي اقدرها في هذه الدنيا ، هو كيف تتصرف النساء كي لا يفتقد ورق التواليت في الحمام . ان حساب الامتار الملفوفة في لفافة ، من حاجة يومية هي اكثر الحاجات حميمية ، واعصاها على التوقع المسبق ، واكثرها تاصلاً في كل فرد من افراد الاسرة ، لا يتطلب غريزة خاصة وحسب ، وانما موهبة ادارة جديرة بالاشراف على قضية باقة الخطورة . واغذا كنت لم اقدرهن حق قدرهن ، واظن انني قد فعلت ذلك في كتبي ، فتكفيني تلك المزية كي اقدر النساء . واعتقد ان عدداً محدوداً جداً من الرجال يمكنهم الحفاظ على نظام البيت ، بكل تلك التلقائية والكفاءة . اما انا فلن استطيع عمل ذلك مقابل اي مال او اي سبب في هذا العالم .

في تلك اللوجستية المنزلية ، يوجد الجانب الخفي من التاريخ الذي لا يراه المؤرخون عادة . ولكي لا اذهب بعيداً جداً ، فقد كنت ارى على الدوام ، انه ما كان للحروب الاهلية الكولومبية ، في القرن الماضي ، ان تحدث لولا استعداد النساء على تحمل تبعاغت العالم وهن في البيت . كان الرجال يحملون البندقية على كتفهم ، دون ان يلتفتوا الي الوراء ، ويمضون الى المغامرة ، دون ان يتخذوا اية احتياطات من اجل حياة اسرهم اثناء غيابهم ، بله في حالة مقتلهم

كانت جدتي تروي لي ان جدي قد التحق ، وهو شاب يافع ، بقوات الجنرال رافائيل أوربي اوربي ، ولم تعد تعرف عنه اي شئ طوال ما يقارب السنة . وفي فجر احد الايام ، سمعت نقراً على نافذة غرفة نومها ، وصوتاً لم تستطع تحديد صاحبه مطلقاً ، يقول لها : « اذا اردت ، يا ترانكيلينا ، ان تري

نيكولاس ، فاطلي براسك على الفور » . فتحت النافذة بسرعة ، وكانت ما تزال في ذلك الحين صبية وجميلة جداً ، ولكنها لم تستطع ان ترى سوى مجموعة الخيالة التي مرت بسرعة عندئذ ، وكان زوجها معهم فعلاً ، لكنها لم تتمكن من معرفته بينهم . ان نساء منه امثالها كن يربين اولادهن ، ويجعلن منهم رجالاً من اجل نساء اخريات ، سيصبحن بدورهن بطلات مجهولاتٍ في حروب اخرى آتية، ويصنعن من بناتهن نساء من اجل ازواج محاربين آخرين ، ويتحملن عبء البيت على كواهلهن الى ان يرجع الرجال . اما كيف فعلن ذلك . باية مثل وباية موارد ، فذلك شئ لا نجده في نصوص تاريخنا الذي كتبه الرجال . والحقيقة انه في تاريخ اكاديمية التاريخ الكولومبية المعفر والمنافق كله ، لا توجد سوى امرأة واحدة . انها هناك منذ اكثر من سنة بقليل ، ولدي من الاسباب ما يجعلني اعتقد انها تعيش في خوف مما يتصنعه زملاؤها في المجد من حشمة وحياء .

ان تفسير انتهاء النساء ، الخاضعات لشرطهن الحالي كربات بيت ، الى الانتحار في الساعة السادسة مساء ، ليس بالامر الغامض كما قد يتبادر الى الذهن . فبعد ان كن جميلات في زمن مضى ، وبعد ان تزوجن وهن في ريعان الشباب من رجال مقدامين واكفاء ما يزالون في بداية طريق النجاح ، كن دؤبات ، عنيدات ، مخلصات ، وكرسن افضل طاقاتهن لدفع ازواجهن بإحدى أيديهن الى الامام ، فيما كن يربين اولادهن باليد الاخرى ، بتفان لا يرين فيه ، هن انفسهن ،انه معجزة يطومية . انهن كما كنت اسمع امي تردد « يحملن على كاهلهن كل ثقل البيت » ، مثلما كانت تفعل جداتهن في حروب كثيرة اخرى منسية . ومع ذلك ، فإن تلك البطولة السرية ، ومهما كانت مضنية ومغفلة ، كانت مبرراً لهن في الحياة . لكنها تضاءلت بعد سنوات طويلة حين وصل الزوج الذي تعهدنه بالرعاية الى موقع لائق في عمله ، وبدأ يحصد وحيداً ثمار الجهد

المشترك ، ثم تضاءلت اكثر بعد ان كبر الاولاد ، وتعركوا البيت . فكانت تلك بداية فراغ كبير ، لكنه ليس بلا علاج بعد ، لان فيه فجوة من الطمانينة تتمثل في اكثر الاعمال سخفاً في العالم : اي اغلاعمال المنزلية ، التي تستطيع ان تؤديها الزوجات الكاملات المتوحدات في ساعات الصباح . كما انهن ما زلن لا يتناولن الطعام وحيدات اذا ما اتصل الزوج بالهاتف ، في اللحظة الاخيرة ، ليقول لهن الا ينتظرنه على الغداء : فثمة صديقات في وضع مماثل يتشوقن لمرافقتهن . ولكن بعد القيلولة المجدبة ، وبعد هاجس صالون التجميل ، ومسلسلات التلفزيون او المكالمات الهاتفية المطولة ،لا يبقى من المستقبل شيئاً سوى هوة الساعة السادسة مساء . ففي هذه الساعة ، اما ان يحصلن على عشيق عابر ، من اولئك الذين لا وقت لديهم حتى لخلع حذائهم ، واما ان يتناغولن زجاجة الاقراص المنومة كلها وكثيرات منهن ، وهن اللواتي كن اكثر وقاراً ، يفعلن الامرين كليهما .

ويكون تعليق الاصدقاء هو ذاته دائماً : « يا للامر الغريب ، لقد كان لديها كل ما تحتاجه لتكون سعيدة ! » . اما انطباعي الشخصي ، فهو ان اولئك الزوجات السعيدات ، كن سعيدات في الواقع فقط ، عندما كن يملكن القليل مما يحتجنه للسعادة .